وائل القاسم

نحو الحرية في السعودية

«إيحاءات كونية وذاتية» واستفهامات لم نجب عنها بعد

بيسان

نحو الحرية في السعودية

وائل القاسم

نحو الحرية في السعودية

«إيحاءات كونية وذاتية» واستفهامات
لم نجب عنها بعد

بيرسان

• اسم الكتاب: نحو الحرية في السعودية
• تـــأليـــف: وائل القاسم
• الطبعة الأولى، شباط (فبراير) 2013م
• جميع الحقوق محفوظة © بيسان للنشر والتوزيع والإعلام
ISBN: 2 - 84409 - 697 - 2

• الناشر: بيسان للنشر والتوزيع والإعلام
ص. ب: 5261 ـ 13 بـــيروت ـ لبـنان
تلفاكس: 351291 ـ 1 ـ 961
E-mail: info@bissan-bookshop.com
Website: www.bissan-bookshop.com

الإهداء

إلى كلِّ الناس

استهلال

أستفتحُ هذا الكتاب مؤمناً بانعدام قيمة الكاتب إلا إذا كان مَعْلماً ومُعَلِّماً للحرية قبل أي شيء آخر، بل وخالقاً لها، ومطالباً بها، وطاعناً بالقلم آمال أعدائها، وجاعلاً من دم تلك الآمال بعد طعنها حبراً لقلمه يكتب به ما يريد، لا ما يريدون.

إنَّ عَجْزَ فئة من الكُتّاب عن أن يكونوا أحراراً في مجتمعاتهم دليلٌ على خوف مَنْ كبَّلهم بأغلاله منهم، وعجزه عن مقارعتهم، وإفلاسه التام وهشاشة عظام أفكاره التي يظن جهلاً أنها ستبقى في مأمن من القادرين على كسرها كسراً لا تجبر بعده أبداً.

لعمري إن القلب ليتقلّب على نار الحسرة على فئةٍ كثيرةٍ من أبناء مجتمعنا، والحيرة في أمرهم والاستغراب من تعارض مواقفهم واضطرابهم وخوفهم من الآخر.. رغم أنهم يزعمون دائماً ويقولون في كل حين: إننا واثقون بمنهجنا، وصحة قناعاتنا، وسلامة منظومتنا الفكرية المقدسة من الخطأ أو الخلل.. فلماذا يخافون صوت المخالف لهم إذن؟!

يجب أن يعلم أولئك، أن المثيرين للغبار في وجوههم ووجوه غيرهم من المستقرين الآمنين الفرحين بصفو أجواء الأوهام وسراب الأحلام ليسوا أعداء لهم، ولا كارهين لأشخاصهم، ولا حاقدين عليهم أو ناقمين منهم.

إنهم ليسوا إلا أكثر البشر معاناةً وحيرةً وتوتراً ناتجاً من اشتعال نار التفكير الحُرّ الذي يؤدي إلى رؤية الأمور كما هي، لا كما يصفها غيرهم. وقد تكون تلك المعاناة المقلقة، الدافعة والمحركة لهم، ظاهرةً واضحةً يعرفها الجميع عنهم، وقد تكون عكس ذلك؛ أي أنها خفيةٌ متواريةٌ لا يدركها إلا من عاشرهم جيداً، وتعمق في دهاليز عقولهم، وسبر أغوار الخفي المتواري في أرواحهم!

إن تلك الآلام والمتاعب المنبثقة من إعمال هؤلاء الكُتّاب عقولهم بشكل حقيقي صادقٍ متجردٍ من العواطف والقيود المتوارثة، تجعلهم من أكثر الناس هروباً من أنفسهم وصدقاً معها وبحثاً عنها في الوقت نفسه؛ لذلك يشاهدون الحياة من منظورٍ آخر يختلف عن منظور غيرهم من المستسلمين لمألوفاتٍ لم يفكروا يوماً - بجدية - في صحتها وجدواها. إنهم يشاهدونها عاريةً من أزياء الأمنيات الجميلة المنسوجة من خيوط العنكبوت. إنهم يشاهدون كل شيء حولهم دون أقنعةٍ.. دون قيودٍ.. دون إذعانٍ للأوصياء.. دون كذبٍ وخداعٍ أو تفاؤلٍ بعيدٍ عن الحقيقة.

ولهذا أرى موقف المتشائمين الناتج من مشاهدة حقيقة الحياة كما هي، أفضل وأكمل وأشرف وأجل -مهما كان متعباً ومرفوضاً-

من موقف المتفائل الذي يبني تفاؤله على ما لا يستطيع العقل السَّويُّ قبوله والاطمئنان إليه والتسليم بصحته!

قمة المعاناة أن يقول إنسانٌ: ليتني خُلقت محدود العقل غبياً جداً، لكي أكون سعيداً جداً، وقادراً على الانسجام مع الأكثرية والاقتناع بقناعاتها.

النفاق الثقافي المحمود!

العقول الكبيرة القويّة الجريئة التي تغرّد طيور أفكارها بتميّزٍ خارج سرب التغريد الفكري السائد والمألوف، في مجتمعٍ يرفض ذلك النوع من التغريد، قد تكون مجبرةً ومعذورةً في الوقت نفسه على شيء من النفاق؛ لأنها تحتاجه أكثر مما تحتاجه العقول الضعيفة الجامدة الخامدة الهامدة المبرمجة على طريقة التفكير الواحد.

أيها الإقصائيون، أيها المتطرفون المبرمجون.. يا من نصبتم أنفسكم قضاةً للضمائر في محاكم الرأي والتعبير دون وجه حقٍ.. أنتم تبذلون كل ما بوسعكم لمنعنا من أن نقول لكم: إننا لا نستطيع الاقتناع بما تريدون إقناعنا به، وتطالبوننا ـ في الوقت نفسه ـ بقول ذلك والجهر به، حتى لا نكون كذابين منافقين، وتشنون علينا الحروب الشعواء لو قلناه أو كتبناه!!

إن محاربة النفاق تقتضي بالضرورة حث الناس على التصريح

بكل قناعاتهم ومعتقداتهم، وتستلزم إلزامهم بتمزيق جميع الأقنعة الفكرية التي يلبسونها، فهل هذا ممكن؟!

نعم، إنه ممكن جداً في المجتمعات المدنية الراقية المتحضّرة، التي لا يشكل فيها الاختلاف في وجهات النظر مشكلةً، ولا يفسد للود قضيةً عند أفرادها الأسوياء عامة، وعند المثقفين منهم على وجه الخصوص، مهما بلغ حجم ذلك الاختلاف، أما في المجتمعات الأخرى كمجتمعنا فهذا مستحيل.

يقولون لنا: إياكم والنفاق.. إياكم والكذب.. احذروا الجبن.. أنتم لا تملكون الشجاعة في طرح آرائكم.. كونوا صادقين.. كونوا واضحين.. ثم يثورون علينا بشراسةٍ إذا صدقنا معهم، ويغضبون منا جداً إذا صارحناهم، ويطالبون بمحاكمتنا ومعاقبتنا بأعنف أنواع العقوبات إذا كتبنا بوضوح.

ما هو المطلوب منا إذن حتى نكون أسوياء في نظركم؟ ماذا نفعل لكم؟ ماذا تريدون منا بالضبط؟

كيف نتعامل معك أيها المؤدلج المفلس؟! هل تريد منا السكوت؟ لا لن نسكت، فمن حقنا البوح بقناعاتنا، كما تبوح أنت بقناعاتك. هل تريد منا الجرأة الكاملة والوضوح التام في طرح وجهات نظرنا، لتجمعها ضدنا بكل خبثٍ ومكرٍ وتلاعب وخسةٍ، ثم تطالب بموجبها بقطع ألسنتنا التي أصابتكم في مقاتل، أو أصابعنا التي كتبت ما لا تملكون القدرة على نقضه؟!

لا، لن يحدث ذلك أبداً، وسنستمر ـ رغم أنفك ـ في تمرير

أفكارنا بالوسائل التي نراها مناسبة لواقع هذا المجتمع الغريب المريب، الذي يسيطر عليه الكذابون والمخادعون والمتلاعبون بالدين وغير الدين، لتحقيق أرباحهم الخاصة وحماية مصالحهم الشخصية منذ عقودٍ طويلةٍ من الزمن دون حسيب ولا رقيب.

سنستخدم كلَّ وسيلةٍ تحقق لنا ما نريد، مهما كانت سيئةً في نظركم، فالغاية تبرر الوسيلة عندنا، وثقوا تمام الثقة أن وسائلنا مهما بلغت من الوقاحة ـ في نظركم ـ لن تكون أشد من وقاحتكم ووقاحة رموزكم العاجزين في نظرنا.

كيف تسمح لك نفسك أيها الخائف من الآخر لعجزك عن الانتصار بأفكارك الهشة الضعيفة على أفكاره القوية الصلبة المتماسكة، التي تعلم أنها قادرةٌ على نسف كلِّ كياناتك الفكرية الكرتونية؛ كيف تسمح لك نفسك بانتقاص إنسانٍ اكتشفت من خلال أطروحاته أنه ينافقك، وأنت تعلم أنه لو لم يكن كذلك لما كان على قيد الحياة، أو لتعرّض لأحقر وأشد أساليب الإساءة والضرر، التي لا تتوقف عند شخصه فقط، بل تمتد في غالب الأحيان، لتصل إلى عرضه وماله وأسرته، وربما دمه؟

كيف تسمح لك نفسك بذلك؟ أنت ظالمٌ ومجرمٌ في هذه الحالة. أنت متجردٌ من جميع خصال الإنسانية الحميدة إن فعلت ذلك. ليس هناك طغيانٌ ولا وقاحةٌ أشد من طغيانك ووقاحتك وأنت تنتقص شخصه أو تسخر منه. إن محاربة صاحب الرأي المخالف بكل الأساليب القذرة المتجاوزة لجميع الحدود، ثم منعه

من النفاق، أو النظر إليه بعين الازدراء إذا نافقك أو حاول منافقتك؛ إن ذلك ليس من العدل في شيء.. إنه ليس إلا القتل المتعمد ـ مع سبق الإصرار والترصّد ـ لكل معاني العدل والإنصاف والحياد.. إنه تلويثٌ شديدٌ أكيدٌ لدماء جسد الثقافة الطاهر، أو الذي يفترض أن يكون طاهراً.. إنه التكسير العبثي الفوضوي المنحط، لجميع مجاديف سفن النزاهة الفكرية في بحور الحوار.

أنت تغضب من جميع أحوالي دون أن تستوعبني جيداً، أو تحاول استيعابي. أنت قليل أدبٍ معي، رغم أني في قمة الأدب معك عند طرح أفكاري. لا أدري كيف أتعامل معك. إن واجهتك بأفكاري تجاهلتها وهاجمت شخصي.. تتجاهل أدلتي الواضحة، وحججي الدامغة، وبيناتي القاطعة، وبراهيني التي لا تملك مثلها، ولا تستطيع دفعها، وترفع أقذر وأفتك أسلحتك ضد جسدي واسمي ومالي وأهلي، وتقتحم ـ بكلِّ دناءة ـ كلَّ خصوصياتي التي لا يحق لك الاقتراب منها فضلاً عن اقتحامها.

وإن داهنتك وجاملتك وسايستك هرباً من شرِّك وحماقتك غضبت أيضاً، واتهمتني بالجبن والنفاق والكذب والخداع والمراوغة!!

اعلم يا هذا أن النفاق مع أمثالك ليس إلا صورةً من أعظم وأشرف صور الاعتراض والرفض والاحتجاج على أساليبك المتطرفة، وغباواتك وغواياتك التي لا تنتهي. إنه ـ أي النفاق ـ في هذه الحالة خلقٌ حميدٌ كريمٌ نبيلٌ جميلٌ جداً، يحق لنا الفخر به،

ورفع شعاره عالياً خفاقاً، وممارسته في كل حين وبمختلف الطرق المتاحة دون تردّدٍ أو خجلٍ.

النفاق خلقٌ قبيحٌ مرفوضٌ، في الساحات الفكرية المحترمة الحرة، التي تقوم على العدل والمساواة والحياد؛ أما إذا كان واقعها كواقع الساحة السعودية، التي يراقبها الجلادون الذين يملكون القدرة على جلد من يختلف معهم في الرأي بسياط القوانين الرجعية المطبقة، فإن الحال يختلف كثيراً.. إن ارتداء قناع النفاق والمراوغة ـ أحياناً ـ ضرورةٌ حتميةٌ، وحاجةٌ ملحةٌ إجباريةٌ لا مناص منها ولا مهرب.

أوجدوا لنا مناخاً ثقافياً نقياً يتنفَّس الجميع هواءه بحريةٍ، ويعبّرون في أجوائه العذبة العطرة عن قناعات عقولهم، ومكنونات أنفسهم تحت مظلة العدالة، وفوق أرض المساواة دون خوفٍ أو رهبةٍ، ونعدكم أن نكون في قمة الوضوح والصدق في كل ما نقول ونكتب.

هل تستطيعون ذلك؟!

الجواب بالبنط العريض هو: (لا) لا تستطيعون ذلك.. أنتم عاجزون عن ذلك؛ لأنكم تعلمون أن الحجة الأقوى هي التي ستنتصر في مثل هذه الأجواء الفكرية العليلة، وهذا ما لا تريدونه.. بل هذا ما تخشونه وترتعد فرائصكم منه.

أنتم لا تريدون انتصار الصواب والمقنع والحق والحقيقة، ولا تريدون انتصار الأدلة الأقوى والبراهين الأوضح.. أنتم لا تريدون

إلا انتصار ما تريدون.. انتصار ما يحقق لكم ما تريدون.. انتصار ما يشبع أطماعكم ويملأ جيوبكم ويحقق أهدافكم الشخصية، ويحمي مصالحكم الموغلة في الشهوات.. أنتم لا تهتمون بشيءٍ.. لا تهتمون بأي شيءٍ، إلا بقاء المجتمع على الحالة التي تريدون، حتى تستمر سيطرتكم عليه، وعبثكم بعقول أفراده وحشوها بما تختارونه من الأفكار، وتوجيه تلك العقول ـ بعد الحشو ـ كما تريدون إلى ما تريدون.

نعم، أنتم تسعون إلى الغلبة بأي ثمنٍ، مهما كان ذلك الثمن.. حتى لو كان الثمن هو الهروب من الحق إلى الباطل الذي توهمون الناس أنه حق!!

يجب أن تعلموا أن المثقّف الناضج هو من يملك القدرة على الانصياع للحجة الأقوى، والتراجع عن أيِّ رأيٍ أو موقفٍ فكريٍّ يتّضح له ـ من خلال حواره مع خصومه ـ بطلانه.

هو المثقف الذي لا يمنع خصمه من الحديث عن أي شيءٍ، ولا عن إيراد أي برهانٍ.. المثقف الحقيقي الناضج هو الذي يردّ على البينة بالبينة وعلى الحجة بالحجة.

إن المثقف النزيه لا يجمع من كلام خصومه ما يدينهم في جهةٍ إعلاميةٍ، أو محكمةٍ معينةٍ متحيزةٍ لتوجهه ومسلكه، ثم يتقدم للشكوى ضدهم، بعد أن عجز عن الدحض والتفنيد!

فهل يستطيع الواحد منكم أيها الرجعيون المتطرفون أن يكون كذلك؟

هل يستطيع الواحد منكم أن يكون مثقفاً حقيقياً ناضجاً نزيهاً واعياً واثقاً من نفسه ومعتقداته؟!

هل يستطيع الواحد منكم أن يقبل الحوار مع الآخر دون أيَّة قيودٍ أو حدودٍ أو تربصٍ أو تهديدٍ أو وعيدٍ، أو أيَّة أساليب ملتويةٍ أخرى؟!

هذا مستحيلٌ مستحيلٌ مستحيلٌ.. أعطوني قراراً رسمياً أو وعداً علنياً من أهل الحل والعقد في الإعلام والقضاء، يضمن للإنسان حرية التعبير عن قناعاته الفكرية ومعتقداته الشخصية بكل وضوحٍ دون أن يتعرض لأذى.. دون أن يتعرض لأي نوعٍ من الأذى، مهما كانت قناعاته ومهما بلغت جرأته في الحديث عنها.

أعطونا وعداً جاداً صادقاً بذلك، ثم حددوا المكان والزمان المناسبين للحوارات والمناظرات، وستجدون المئات بل الآلاف من حملة القناعات القوية المستترة المتوارية المضادة لقناعاتكم الهشة الضعيفة المعلنة؛ ستجدونهم يقفون أمامكم وقفة الواثقين من أفكارهم وأنفسهم، وستعلمون حينها حقيقتكم وحقيقة ما ترددونه من الخزعبلات والتفاهات التي أزكمتم بروائحها العفنة أنوفنا.. ستعرفون حينها حجمكم الثقافي جيداً.

لا أخفيكم سراً أنني أنتظر منذ فترةٍ صدور قرار إيقافي عن الكتابة في الصحف السعودية؛ إذ إن إرهاصات ذلك الإيقاف ظهرت وبانت بكل وضوحٍ، ولذلك فقد رتّبت أموري للانتقال للكتابة في صحفٍ خارجيةٍ إن حدث ذلك الإيقاف المتوقع يوماً ما.

لن أحزن إن حدث ذلك، بل سأفرح جداً؛ لأنه شهادة نجاحٍ وتفوقٍ وانتصارٍ.. لقد اعتدتُ على منع كثيرٍ من مقالاتي، والتغيير والتعديل في بعضها قبل النشر، منذ أن كنت كاتباً في «البلاد»، وحتى هذا اليوم الذي أكتب فيه في «الجزيرة» وغيرها من الصحف.

أنا لا ألوم من يقوم بذلك؛ لأني أعلم أنه لا يستطيع أن لا يقوم بذلك.. لا يملك إلا أن يتقن القيام بذلك على أكمل وجهٍ إذا طُلب منه ذلك؛ لأنه لن يستمر في عمله لو امتنع عن القيام بذلك معي ومع غيري، بل قد لا يستمر منبره الإعلامي أيضاً.

أنا لا ألومه هو.. أنا ألوم من أوصله إلى هذه المرحلة.. ألوم من أجبره على هذا المسلك وعلى هذه الطريقة الجائرة في التعامل.

إن تكبيل قلم الكاتب بمنع مقالاته تارةً، والتلاعب بها تارةً أخرى، وإيقافه عن الكتابة تارةً ثالثة، لا يعني إلا انتصاره الباهر على من قيده، وعمل على كتم أنفاسه، واجتهد في تجفيف مداده وإسكات صوته، ذعراً منه وهرباً من أفكاره التي لا يملك لها صدّاً ولا ردّاً.. وكذلك تهديده بعقوبةٍ معينةٍ أو إجراء ما، إن تكلم في الموضوع الفلاني أو القضية الفلانية.

يحق للإنسان في جميع دول العالم الحوار مع المختلفين معه بكل أريحيةٍ وحريةٍ، فوق أرض الحياد وتحت سقف الاحترام المتبادل، فلماذا لا تكون بلادنا كذلك؟ لماذا لا يكون مجتمعنا بهذه الصورة المشرقة النظيفة البهيّة، لعله يلحق ولو بآخر مقصورة من مقصورات قطار الحضارة والتقدم والرقي؟!

إنني أوجه هذا الكلام لكل مسؤولٍ في الجهات الإعلامية والقضائية والثقافية والفكرية المختلفة.. إنني أقول ذلك بكل حرقةٍ، فقد مللنا من النفاق الاضطراري، والكذب الضروري الذي تجبروننا عليه.

وأختم بما يجب أن أختم به فأقول: الواثق من نفسه وفكره ومنهجه، لا يخشى الصوت الآخر أبداً.. لا يهدده.. لا يتوعّده.. لا يتربّص به.. لا يجتهد في إزهاق روح صوته.. لا يتهجم على شخصه.. لا يسعى للإضرار به.. إن العاجز المفلس المرتبك المذعور المدرك لسخف قناعته، وضعف براهينه البالية التي أكل عليها الدهر وشرب، هو من يقوم بتلك التصرفات الصبيانية المخجلة، التي يتملص بها عن المواجهة من جهة، ويجبر خصمه بها على لبس ثوب النفاق الثقافي الضروري المحمود في مثل هذا الموقف.

إن النفاقَ الذي يستطيع الإنسان من خلاله التعبير عن مكنونات عقله، وتمرير أفكاره بطريقة تضمن له استمراره في تقديم رسالته، وسلامة دمه وماله وعرضه، شرفٌ ما بعده شرف، وشموخٌ ليس فوقه شموخ، وكذلك الكذب الذي يضطر إليه التنويريون اضطراراً في المجتمعات المظلمة الرجعية، التي لا يمكن أن يصلها النور إلا من خلال أساليب المراوغة القائمة على قاعدة ميكافيلي العظيم التي تقول: الغاية تبرر الوسيلة.

أنا مقتنعٌ جداً بذلك، ولا أخجل من الحديث عن هذه القناعة

والتصريح بها في كل مكان، وإعلانها أمام الجميع، والجهر بها بأعلى صوتٍ؛ لأني أعيش في مجتمعٍ مظلمٍ منغلقٍ متوحّشٍ، لا يمكن أن يتعامل أمثالي مع غالب أفراده إلّا بمثل هذه الطرق.

وأقسم لكم في الختام - بكل مقدساتكم - إنني أعرف العشرات من المنافقين والكذابين المراوغين الشرفاء العظماء في الساحة الثقافية السعودية.

حرية العقل في الإسلام!

قال ابن منظور في لسانه: العَقْلُ: الحِجْر والنّهى، ضِدُّ الحُمْق، والجمع: عُقولٌ. وقال صاحب القاموس: العقل: العِلْمُ بِصفاتِ الأَشْياءِ، من حُسْنِها وقُبْحِها، وكَمَالِها ونُقْصانِها، أو العِلْمُ بخَيْرِ الخَيْرَيْنِ، وشَرِّ الشَّرَّيْنِ، أو مُطْلَقٌ لأُمورٍ، أو لقُوَّةٍ بها يكونُ التمييزُ بين القُبْحِ والحُسْنِ، ولِمعانٍ مُجْتَمِعةٍ في الذِّهْنِ. يكونُ بمُقَدِّماتٍ يَسْتَتِبُّ بها الأَغْراضُ والمصالِحُ، ولهَيْئَةٍ مَحْمودةٍ للإنْسانِ في حَرَكاتِهِ وكَلامِه. والحَقُّ أنه نورٌ روحانِيٌّ، به تُدْرِكُ النفسُ العلومَ الضَّرورِيَّةَ والنَّظَرِيَّةَ. وابْتِداءُ وجودِه عند اجْتِنانِ الوَلَدِ، ثم لا يَزالُ يَنْمو إلى أن يَكْمُلَ عند البُلوغ. انتهى كلامُهُما، وبناءً على تعريفيهما للعقل أقول:

تتجلى أسمى صور حرية العقل في الإسلام عند الحديث عن حرية المعتقد، فقد تواترت النصوص الكريمة التي تثبت ـ قطعاً ـ أنّ للإنسان كامل الحق في اعتناق ما يشاء، وتبني ما يشاء، واختيار ما يشاء من الملل والنحل والمذاهب الفقهية والقناعات الفكرية

وغيرها.. ومن ذلك ـ مثلاً لا حصراً ـ آية البقرة الشهيرة: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾، وآية الشورى التي تقول: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾، وكذلك آية سورة يونس: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾، ومن السنّة قول النبي محمد عليه السلام، فيما رواه الطبري وغيره: (من كان على يهوديته أو نصرانيته فلا يفتن عنها)، أي لا يُصرف عنها بالقوة والإكراه.

وفي قصة ريحانة جارية النبي محمد عليه السلام دليلٌ آخر على ذلك، فقد تعصّت بالإسلام ـ حين سباها ـ أي امتنعت، وأبت إلا اليهودية، فلم يكرهها حتى أسلمت من تلقاء نفسها.

إنّ ديناً سمحاً سهلاً كهذا، يسمح للناس بالحريّة العقديّة، ويمنع إكراه عقولهم على ما لا يقنعهم من المعتقدات، ويُخْبِر رسولُه أنه مبلغٌ فقط؛ إن ديناً كهذا لا شك أنه سيسمح لهم بجميع الحريات الأخرى ـ الأقل من حرية المعتقد ـ من باب أولى!

ولذلك لا أعتقد أنّ الصورة التي يعكسها لنا كثيرٌ من مطبّقي الإسلام على أرض الواقع اليوم صحيحةٌ إطلاقاً؛ ومن ذلك إصرارهم على فرض الآراء الشرعيّة التي تقنعهم ويختارها أو يرجحها كبارُهم، وبذل الجهود الجبارة لتهميش ما سواها من الآراء الإسلامية الأخرى.

إنهم يفرضون ما يريدون بالقوة، متجاهلين عقل المتلقي الذي جعله الإسلام مناط التكليف، ومتجاهلين عشرات الآيات الكريمة

التي تحث على التفكر والفهم والبحث والتأمل قبل إعلان الاقتناع، مثل: «أفلا يعقلون، أفلا يفقهون، أفلا يتدبّرون، أفلا يبصرون . . الخ».

إنهم يتجاهلون كلَّ ذلك عمداً، ويلحّون في إلزام غيرهم بقناعاتهم الخاصة عنوةً وقهراً، فإذا ناقشهم أحدٌ من الناس في موضوعٍ معيّنٍ، وأظهر وجهة نظرٍ مخالفةٍ لما يريدونه، أو نقل رأياً إسلامياً قديماً أو معاصراً يخالف رغباتهم؛ استخدموا ضدّه فوراً ذلك السلاح العجيب المتمثّل في قولهم (عقلُ الإنسانِ قاصر)، ولا يفهم النصوص الشرعية بشكل صحيحٍ إلا نحن والإمام فلان أو الشيخ فلان فقط، فلا تدخل نفسك في أمورٍ لا تفهمها، ولا بد أن تستسلم أيها الجاهل الناقص لنا ولفهمنا الخاص الكامل العظيم، وفهم علمائنا الخاصّين المميّزين فقط، دون بقية أئمة وعلماء الإسلام الآخرين، أو غيرهم من العلماء والحكماء والفلاسفة والمفكرين. يجب عليك الانصياع لقناعات مذهبنا الفقهي دون غيره من المذاهب. . يجب عليك التسليم لكل ما نراه صواباً ونختاره ونرجحه من أقوال الفقهاء وعلماء اللغة والعقيدة، والمحدّثين والمفسّرين للنصوص المقدّسة، دون أن تفكّر أو تعمل عقلك في دلالاتها ومعانيها، ناهيك عن الاعتراض أو محاولته.

يا أهل الحلِّ والعقدِ في ديارنا: هل من سبيلٍ إلى تصحيح ذلك المنهج الفاسد المنحرف، الذي يسير عليه ويتعامل به مع الناس كثيرٌ من متطرّفي رجال الدين في هذا الوطن؟ أم هل من سبيلٍ إلى

الحوار الجاد معهم، تحت مظلةٍ رسميّةٍ، وبطريقةٍ حضاريةٍ إيجابيةٍ لبقةٍ، تضمن القضاء عليه واستبداله بما هو أصلح وأنفع؟!

قد يقبلُ الإنسانُ المؤمن ـ بأي دينٍ ـ تقديسَ نصوص دينه، واحترامها واعتبارها مصادر يقينيةً للمعلومات والمعارف والقصص والغيبيات وغيرها، ولذلك نحترم ونقدّس ـ كمجتمع ـ ما ورد في القرآن الكريم والسنّة النبوية المطهّرة؛ ولكن الذي لا يمكن للعاقل السوي قبوله، والخضوع له هو تقديس بعض تفاسير تلك النصوص وتأويلاتها وشروحها، وآراءِ فئةٍ مختارةٍ منتقاةٍ من العلماء، وتناقل أقوالهم وترويجها بين الناس، ورفض ما سواها دون مبرّرٍ سليمٍ مقبولٍ، وكأنها وحيٌ منزلٌ لا يمكن أن يكون فيها خطأ أو زللٌ أو نقصٌ أبداً.

يتجاهل عشّاق الوصاية تلك النقطة، فيختارون من بين وجهات النظر وخلافات العلماء التي لا تنتهي حول مدلول نصٍّ معيّنٍ ومراده قولاً واحداً، يعجبهم ويوافق رغباتهم الشخصية أو توجهاتهم النفسية، ثم يأمرون بقية البشر بالتسليم بصحته، والخنوع أمامه والخضوع له، والقطع بأنه هو الصواب الذي لا غبار عليه، بل الذي لا يمكن أن يكون عليه غبارٌ أبداً، وأنه هو المراد الذي قصده الله بالنص يقيناً، ثم يطالبون بتطبيق ذلك المدلول المقدّس عندهم على حياة جميع الناس، دون قيدٍ أو شرطٍ أو حوارٍ أو جدلٍ!

وتجدر الإشارة هنا إلى أن ذلك المفهوم البشع المغلوط المشوّه، لم يولد بهذا الحجم الضخم في بداية ظهوره، ولم تصل

آلية إسقاطه على الواقع إلى هذه الدرجة العالية من الترسيخ الواضح والانتشار الواسع والتكريس المزعج، إلا بعد أن حصل ما يعتبره المؤيدون له هزيمةً للعقل البشري بعد المعارك الضارية، التي دارت بين المعتزلة القائلين بأنّ القبحَ والحسن عقليان، وبقية الطوائف الكلامية التي تخالفهم، ومنهم الأشاعرة الذين يرون أن القبح والحسن شرعيان، وأهل السنّة الذين يرون أن بعض الأمور لا يدرك حسنها وقبحها إلا بالشرع فقط، وبعضها الآخر لابد للشرع من مشاركة العقل في تحسينه أو تقبيحه، ويتبع رأي الأشاعرة والسنّة في هذه المسألة فئاتٌ من الوعّاظ الذين لا أميل كثيراً ولا قليلاً إلى آرائهم في مجتمعاتنا العربية اليوم.

إننا لا نكاد نجد نصاً واحداً من نصوصنا المقدسة خالياً من اختلافات العلماء عند محاولة تطبيق مدلوله في حياتنا، فلماذا لا يُترك اختيار المدلول الصحيح، والمراد المقصود من كل نصٍّ لعقل الإنسان إذا كان قادراً على الترجيح؟ بل لماذا لا يُفتح المجالُ أمام القادرين من الناس على ابتداع وابتكار تفاسير جديدةٍ لتلك النصوص؛ خاصةً ونحن نعيش في زمنٍ تعددت فيه وسائل البحث والمعرفة، وتنوّعت فيه نتائجُ الدراسات والبحوث العلمية، وغيرها من الأمور التي قد تجعل التفسيرات الحديثة المنطقية لكثير من تلك النصوص الغامضة أفضل وأدقّ وأجمل، وأقدر على الانسجام مع العصر من تفاسير المتقدمين وتحليلاتهم؟!

يجب أن يستوعب الجميع أن ابن العصر أكثر قدرةٍ على معرفة

ما يناسبه في حياته من السابقين له، الذين عاش كثير منهم في قرونٍ بعيدةٍ تختلف طبيعة الحياة فيها كلياً عن العصر الحديث الذي نعيش فيه.

من الخطأ أن يظنّ أحدٌ أن إحالة نوعٍ من المعلومات المتلقاة إلى صندوق حفظ الحقائق المؤكدة في عقله، دون فرزها وترتيبها وإجراء امتحاناتٍ ذهنيةٍ حقيقيةٍ عليها، بحجة أنها جاءت من مصادر معينة لها صفةٌ خاصةٌ، تجعل التسليم بصحة ما يرد منها يقينياً قطعي الصحة والثبوت؛ من الخطأ ـ في رأيي ـ أن يظن أحدٌ ذلك، سواءً كانت تلك المعلومات مسموعةً أو مقروءةً أو مشاهدةً، وسواءً كان مصدرها رجلاً مختصاً أو مهتماً، أو امرأة مختصّةً أو مهتمةً بالدين أو السياسة أو الفكر أو الاقتصاد أو الأدب أو التاريخ أو غير ذلك.

أغلب الناس يقومون بذلك، دون أن يشعروا بحجم الخطأ الذي يرتكبونه؛ لأنهم اعتادوا على هذا الأمر وتشرّبوه منذ الطفولة. ولذلك يعتبرون المتفحِّص لما يظنونه مسلماتٍ شاذاً غريباً منبوذاً غير محبوبٍ ولا مقبولٍ عندهم. إن تعطيل الفكر الإنساني في مجتمعاتنا بهذه الطريقة الوحشية لم يحدث هكذا فجأة في ليلة وضحاها، بل مرّ بسلسلةٍ طويلةٍ من المراحل التي تراكمت وتمازجت جسيماتُ مكوناتها، حتى تبلورت على أرض واقعنا المجتمعي بلورةً سيئةً ملموسةً ومحسوسةً، للأسف.

قال لي أحدهم: هذه الطريقة التي لا تعجبك هي سرُّ السعادة؛ لأن التعمّق في كلِّ معلومةٍ وسبر أغوارها، والتغلغل في أسرارها

متعبٌ وشاقٌ، بل قد يصل بالإنسان إلى الحزن والشك في كل شيء حوله، وهذا أمرٌ صعبٌ ولا يطاق.

ولا يسع المرءَ وهو يسمع مثل هذا الكلام، إلا أن يتعجب لسعادة لا تُنال، إلا بأن تحيا الأمة بمفهوم (سياسة القطعان) التي يوجّه أفراد المجتمع وفقها توجيهاً إلزامياً لكل شيء.. يساقون لما يريده الراعي، ويُمنعون من البحث في مدى صحته من عدمها!!

نعم، ربما يكون بعض هؤلاء المحرومين من عقولهم سعداء، بل سعداء جداً كما ظهر لي من تأمل حياة عيّناتٍ منهم. المعرفة قد لا تهب الإنسان السعادة الكاملة، وقد يدخل المرءُ بسبب التفكّر الزائد في منعطفاتٍ شديدةٍ من الألم والقلق والتعب والصراعات النفسية، وكما قال المتنبي:

وَالهَمُّ يَخْتَرِمُ الجَسيمَ نَحَافَةً ... وَيُشيبُ نَاصِيَةَ الصّبيّ وَيُهرِمُ

ذو العَقلِ يَشقَى في النّعيمِ بعَقْلِهِ ... وَأخو الجَهالَةِ في الشّقاوَةِ يَنعَمُ

وَمن البَليّةِ عَذْلُ مَن لا يَرْعَوي ... عَن جَهلِهِ وَخِطابُ مَن لا يَفهَمُ

ولكنها ـ أي المعرفة ـ تنفع الإنسان، وتجعله يفهم ما يدور حوله وما يمرّ به من أحداث ومواقف. وهذا النفع المعرفيُّ لا يستلزم التعاسة على إطلاقه، بل ربما نال الإنسانُ بعد وصوله إلى مرحلةٍ عاليةٍ من الاطلاع الفلسفي، والتعمّق والتفكر المعرفيين نصيباً وافراً وحظاً عظيماً من السعادة الناتجة عن الفهم الصحيح للأمور عامةً، وللتشريعية الدينية منها بشكل أخصّ، بعد ربط

خيوطها ببعض بهدوءٍ تامٍ، وتأملٍ دقيقٍ شاملٍ وتركيزٍ طويل نفس، وبحثٍ مستفيضٍ مثمرٍ على المدى البعيد.

إنه ليس هناك جهلٌ نافعٌ ولا معرفةٌ ضارةٌ أبداً. وقد تكون المعرفة الحقيقية الناتجة عن البحث والاطلاع الواسعين متعبةً وصادمةً ومؤلمةً في المراحل الأولى من صعود تلك السلالم الشائكة؛ ولكنها قد توصل الإنسان في النهاية إلى برِّ الاستقرار والراحة والتصالح مع الذات، عند بلوغه أعلى درجات تلك السلالم، وهنا تكمن سعادةٌ أخرى مختلفةٌ تماماً عن تلك السعادة الزائفة التي يتوهمها بعض الجهلة.

لابد أن ينهي أبناءُ مجتمعنا المنغلق المستسلم المسيَّر حالة السلام مع عقولهم.. لابد أن يستيقظوا من سباتهم. إنه لمن المتحتم عليهم جداً ـ ذكوراً وإناثاً ـ أن يتحاربوا ويتصادموا مع آلاف المعلومات المخزنة في رؤوسهم. ليس للمجتمعات العربية، وعلى رأسها مجتمعنا.. ليس لها على ما يتراءى لي أن تنتظر مُنقذاً من الخارج. يجب أن ينقذها المتنورون من أبنائها.. يجب أن يعملوا ويجتهدوا ويبذلوا الكثير إذا أرادوا الانتقال بمجتمعاتهم من عالم الانغلاق الرجعي القبيح إلى عالم المعرفة الانفتاحي الجميل.. لابد أن يعوّدوا عقول الناس على الاحتجاج الثقافي الذي يحرث ركامَ القناعات حرثاً، يعزل ويميّز الحقيقة من الوهم، والغث من السمين، والخبيث من الطيّب، والماء من السراب، بالحجج العقلية والبراهين الدامغة والأدلة القطعية، لا بالعواطف

والتقليد فقط. لابد من الاحتجاج.. لابد من الاحتجاج.

إن الامتحانات الذهنية ضروريةٌ جداً للإنسان السوي المدرك المتبصّر، ولابد من التعود عليها والإكثار منها دون قيودٍ أو شروطٍ أو عقباتٍ أو حواجز. لابد أن تخلّص نفسك أيها الخاضع التابع مِن أغلال التبعيّة حتى تنعم بجنة الحرية.

العلاج سهلٌ وميسرٌ جداً يا رعتك قوى الرب، ولا يحتاج إلى كثرة شرحٍ ولا إلى تكرار طرح. الخطوة الأولى من العلاج هي أن تحضر ورقة وقلماً الآن، وتكتب مجموعةً من الأمور الكبيرة التي تظنها ويظنها مجتمعك مسلماتٍ أو ثوابت، أو مبادئ أو قِيَماً أو حقائق قطعيةً يقينيةً لا تقبل الجدل والنقاش. جرّب أن تختار عدداً كبيراً منها بعشوائيةٍ، ثم اجلس في مكانٍ هادئٍ بعيدٍ عن الناس، وتأملها بتفكيرٍ عميقٍ صادقٍ وتجردٍ حقيقيٍّ من العواطف والإملاءات والتأثيرات الاجتماعية ورواسب التلقين. ثم انظر إلى النتيجة. لن أسهب أيها المؤدلج في شرح بقية خطوات الدواء الناجع لحالتك؛ لأنك ستكتشفها تلقائياً بعد تكرار هذه الخطوة الأولى عدة مراتٍ.

غباء الببغاء

إنك إذا كنت مؤهلاً عقلياً، ومعتمداً على عقلك المؤهل وحده، ورافضاً كلَّ ما لا يقبله من الأشياء، مهما بلغ تقديس المحيطين بك لها، أو إعجابهم بها أو إصرارهم عليها، وقادراً على تنحية عواطفك وموروثاتك عند التفكير في قضية ما، فإنك حينئذٍ ستصل إلى ما أريدك أن تصل إليه من خلال كتابتي لهذه الأسطر.

أريدك أن تصل إلى تلك المرحلة العظيمة من مراحل حرية العقل، التي تجعلك صلب القناعات الحرة، التي وصلت إليها بالتفكير الحر العميق المستقل، المتجرد من جميع العوامل العاطفية والمجتمعية التي تمنع غالب الناس من تحقيق هذا المطلب الرفيع العزيز.

أريدك أن تتخلص من جميع رواسب التلقين.. أريدك أن تغسل عقلك بماء الحرية حتى ينظف من كل سموم وأدران الحشو والتعويد المتراكمة، التي تكرَّست فيه منذ طفولتك دون أن تفكر في

صحتها يوماً بحيادٍ وصدقٍ! أريدك أن تصل إلى القدرة الكاملة على اختيار قناعاتك بتجرُّدٍ صادقٍ، وبُعْدٍ كاملٍ عن جميع المؤثرات التي يمنع تشويشُها العقولَ من النظر إلى الأشياء بوضوحٍ وصفاءٍ.

احذر أن تكون كالببغاء الذي يردد ما يمليه عليه غيره دون تفكير فيه، أو محاولة لتأمله وفهمه والتأكد من صحته!.

هل سمعتم ببغاء يفكر في معاني الكلمات التي يكررها بعد سماعها من الناس؟ إن المؤدلج المسكين المفلس كالببغاء تماماً، يردِّد بكلِّ غباءٍ ما يسمعه من الملقنين..

إنه أشد غباءً من الببغاء؛ لأنه لا يكتفي بترديد ما لم يعمل عقله فيه، بل يتجاوز تلك المرحلة إلى مرحلةٍ أكثر غباءً وحماقةً وعبوديةً، فتجده يدافع عن ملقنيه، ويهاجم من يختلف معهم في الرأي، أو من ينتقد ويفنّد بالحجج والبراهين وجهات نظر أساتذته ومحفظيه.!

احذر أيضاً (الاقتناع دون اقتناع)، احذر أن تخادع نفسك أو أن تمكر بها..

لا تظهر قناعتك بأيَّة فكرةٍ تحت أيِّ ضغطٍ... أبدًا أبدًا.

إن إظهار الإنسان اقتناعه بشيءٍ ما، بسبب خوفه من وهمٍ ما، أو طمعه في سرابٍ ما، أو هربه من شبح خرافةٍ ما، أو سعيه إلى خيالٍ ما.. إن ذلك ليس اقتناعاً حقيقياً.. إنه ليس إلا مخادعةً رخيصةً للنفس وهروباً ذليلاً من رؤية الأشياء كما هي إلى عالم الأوهام والخزعبلات.

إن القناعات كالطوب الذي يُبنى به الجدار، فكلُّ قناعةٍ منها طوبةٌ، والجدار هو الكيان الفكري للإنسان.. فإذا بنى الإنسان كيانه الفكري بقناعاتٍ هشةٍ ضعيفةٍ، تبنّاها وارتضاها لنفسه نتيجةً لضغوطٍ أو مطامع معينة، دون اقتناع حقيقيٍّ كاملٍ جادٍ بها، فإن كيانه الفكري سينهار عند أول امتحانٍ حقيقي، كمواجهة من يحمل قناعاتٍ صلبةً مضادة.

أجل، سينهار جسد أفكاره كما ينهار الجدار الذي بُني بأحجارٍ ضعيفةٍ غير متماسكة.

ليس هناك أكثر ثقةً في خطواته من إنسانٍ بنى قناعاته فوق قمم جبال الحرية في أجواء فكريةٍ عليلةٍ نقيةٍ، بعيدةٍ عن غبار الوصاية وشوائب الولاية، وأجواء الخرافات والكوابيس الملوثة، وعوالق أتربة التلقين والإكراه وفرض الرأي.. إن هذا الإنسان سيمشي في ساحة الثقافة والفكر ملكاً واثق الخطوات دون أدنى رَيْبٍ، بل بكل يقين.

العقول يا أعزائي كالصناديق، والأفكار هي ما يوضع فيها إما ذهباً أو حجارة..

وقد يكون الصندوق الذي يملؤه صاحبه بالحجارة أثقل من الصندوق المملوء بالذهب والفضة، ولكنه لا يساوي شيئاً.. إن قيمته صفرٌ، مهما تعب صاحبه في جمع ووضع تلك الحجارة الثقيلة فيه! ما أجمل أن تكون قناعاتك ثمينةً كالذهب.. ابذل كل ما بوسعك لتحقيق ذلك المطلب النفيس.. لا تضع في صندوق

عقلك أيَّة فكرةٍ لا تقنعك إقناعاً تاماً، مهما بلغ تقديس المحيطين بك لها، أو فرحهم بها، أو حرصهم عليها، إذا أردت أن تكون مميزاً مختلفاً شامخ الذات والحِجا. ولن يكون ذلك سهلاً.. إياك أن تعتقد أن ذلك الأمر سهل المنال.. إنه أمرٌ شاقٌ ومتعبٌ، لا تستطيعه إلا النفوس الكبار التي تتعب في مرادها الأجسام.. نعم، يجب أن يتعب جسمك.. يجب أن تتعب عيناك في البحث والقراءة والمشاهدة والاطلاع والتمحيص والمقارنة.. يجب أن تتعب قدماك في السير بك إلى كل مكان تجد فيه معلومةً معينةً تحتاجها في بحثك عن موضوعٍ معين.. يجب أن يتعب قلبك من زيادة تفكير عقلك.. يجب أن يتعب فيك كلُّ عضوٍ، وأن تتحمل الصعوبات الكثيرة والعقبات الكأداء التي ستعترض طريقك ـ حتماً ـ قبل أن تصل إلى برِّ أمان العقل وقناعاته الثقيلة الراسخة وحريته العظيمة المقدسة.

لن تصل إلى ذلك المطلب السامي بسهولةٍ، بل لابد دون عسل تلك المنزلة الجليلة من إبر نحلها الذي سيهاجمك بين الفينة والأخرى، وأنت تسير في طريق الخلاص والعتق والانتصار.. لابد أن تمارس التفكير الحر المستقل كثيراً.. لابد أن تتعود عليه بالمثابرة والإصرار حتى تتمرس فتنجح. لابد أن تكون طويل النفس.. لابد أن تتدرج في ذلك بهدوءٍ.. لابد أن تصعد السلم بتوازنٍ حتى لا تسقط. ولكنك حين تصل، ستنسى كل ما مر بك من متاعب وعقباتٍ، ثق أنك ستشعر بنشوةٍ فريدةٍ كبرى تستحق التضحية والكفاح والعمل الدؤوب.

عقولٌ كسلال النفايات!

بعد أن تحدثتُ عن غباء شبيه الببغاء، الذي يردّد ما يمليه عليه ملقنوه دون فَهم، أريد أن أتحدث عن غباءٍ أشد منه بكثير، وهو خضوع الأذكياء للأغبياء.

ليس هناك ذلةٌ ولا هوانٌ ولا انحطاطٌ أفظع من خنوع الذكي واستسلامه لما يفرضه عليه الأغبياء والبُلْه، الذين لا يعرفون ما يدخل في أمِّ أدمغتهم ولا ما يخرج منها.

ليس هناك فَرقٌ بين الذكي والغبي إلا إذا استطاع الذكي الخروج من دوائر تفكير الحمقى وبلداء الفكر، أما إذا انتصرت عليه العوامل العاطفية، والقيود الرجعية والظروف الاجتماعية وغيرها؛ فمنعته من الخروج من تلك الدوائر الضيقة، والتحليق في أفق الحرية الواسع، فليس لذكائه فائدةٌ كاملةٌ أو قيمةٌ حقيقيةٌ مرجوّة النفع.

لا أدري كيف يقبل الذكي أن يبقى أسيراً للغباوة والجهل، والخرافة والخزعبلات والأكاذيب والسخافات، التي يرجم

بأحجارها نفسه وعزته ومجده، وشموخ عقله بوصفه إنساناً ذكياً مميزاً، أو إنساناً يُفترض أن يكون مميزاً عظيماً بذكائه.

إن عجبي لا يكاد ينقضي من أولئك العباقرة الأساتذة النوابغ الذين حصلوا على أعلى الشهادات العلمية، وهم يهذون علينا في المجالس، ويدندنون في وسائل الإعلام ليلاً ونهاراً بأتفه الحماقات التي رسَّخها فيهم ـ دون اقتناع حقيقي بها ـ التلقينُ والتعويدُ القائمان على الذعر من مخالفة المسيطر والمعروف.. والأعجب من ذلك، هو رفضهم لاستماع أي صوتٍ معارضٍ لقناعاتهم الهشة الركيكة، التي تفتقد الكثير من مقومات الطرح العقلاني الرشيد.

ليس هناك أصغر حجماً ولا أقلّ قدراً من إنسان يرفض الرأي الآخر، وهو لم يسمعه أصلاً ولم يسمح له بالوصول إلى عقله المنغلق بشكل صحيحٍ ومستوعَب؛ بحجة أنه يحوم حول حمى أمورٍ مقدسةٍ لا تقبل النقد ولا الرفض ولا الاعتراض، ولا مجرد النقاش عنده.

إنه لمن أرذل وأعجب وأشنع وأبشع غوايات الإنسان وحماقاته وغباواته التي لا تنتهي، تسليمه بصحة ما لم يفكر بجديّةٍ في سلامته وصحته، وإن عقله ليبدو ـ والحال كذلك ـ أقذر من سلة مهملاته التي يلقي فيها نفاياته، سواء شعر بذلك أم لم يشعر.

مزِّقوا أيها الناس أكفان أذهانكم المدفونة في مقابر دكتاتورية الرأي، وانقدوا كلَّ ما يعتبره المجتمع مسلَّماتٍ أو ثوابت لا تقبل النقاش، وطالبوا بأصواتٍ عاليةٍ بحرية التفكير في كلِّ شيء،

وبحرية إبداء الرأي في أيِّ شيءٍ، وبحق التعبير عن جميع القناعات.

إن غيابَ حرية التفكير، وانخفاض سقف حرية التعبير في مجتمعنا ناتجٌ من أسبابٍ كثيرةٍ، منها ـ بل على رأسها ـ التشعب أو الانقسام الحاصل في تعريفاتها، أي في تعريف حرية التفكير وحرية الرأي، وحق التعبير واختيار القناعات. . وإن ذلك التشعب لا يعود ـ في نظري ـ إلى عسر مدلول تلك المفردات، بقدر عودته إلى التصادم العنيف الحاصل بين المستخدمين لها من ناحيةٍ، وإلى ازدواجية الإنسان في تطبيق مدلولها عند طرح رأيه من ناحيةٍ أخرى.

فعندما يريد الواحد منا ممارسة إِحْدى صور الحرية التعبيرية التي يراها حقاً مشروعاً له حسب فهمه الخاص لها، أو التي يراها حاجةً ضروريةً تلح عليه في موقفٍ معينٍ، حتى وإن لم يكن مقتنعاً تماماً بأنها حقٌ من حقوقه في ذلك الموقف، فإنه قد يتصادم مع فَهم الآخرين لحرية الرأي، وتطبيقهم لذلك الفَهم الذي يرونه صواباً على الأرض نفسها التي يريد هو ممارسة حريته عليها؛ ما يتسبب في زحامٍ طبيعيٍّ لمركبات الطرح في شوارع الفكر، بشكلٍ فوضويٍّ لم ولن يستطيع البشر التكيف معه، أو تنظيم حركته المرورية في طرقاتهم الثقافية أبداً.

وقس على تناحر حريات التعبير وتنافرها أموراً عديدةً أخرى، كتعدد مزاعم الناس حول معرفة الحقائق ـ إن كانت معرفتها اليقينية ممكنةً أصلاً ـ وجزم كل فرد أو جماعة منهم بصحة مواقفه أو

مواقفهم حولها، سواء كانت تلك المواقف نتيجة اقتناعٍ حقيقيٍّ أو نتيجة تقليدٍ أعمى.

وقس عليه أيضاً كثرة معايير الصواب والخطأ، واختلاف الناس في اختيار الأنسب منها، ثم في تحديد الآليات السليمة لعمل تلك المعايير بعد اختيارها.

الحياة معقدةٌ جداً في نظري، وأشدها تعقيداً هو ما أنا بصدده هنا؛ فلا بد ـ بناء على ذلك التعقيد ـ من تناقض الشخص مع نفسه أحياناً؛ بل كثيراً، ولا بد أيضاً من تناقضه مع الناس وتصادمه معهم في الرؤى والأطروحات الفكرية وغيرها، مثلما يتصادم مع كل ما يحيط به من كائناتٍ حيةٍ أو غير حيةٍ في هذا الوجود المضطرب؛ لأن هذه طبيعته ـ أي الإنسان ـ التي وُجد وجُبل عليها، ولأن هذه أيضاً هي طبائع وخصائص ما ومَن يحيط به.

الكائنات الحية تتصارع من أجل البقاء، وكذلك الأفكار يجب أن تتصارع من أجل البقاء أيضاً، والبقاء للأقوى المستند إلى الأدلة والبراهين، والحجج التي ترحب بها العقول السَّوية الحرة لا المؤدلجة المغيَّبة الخانعة.

إن الإنسان الذي يملك قدراً عالياً من العبقرية، ثم لا يستطيع توظيفها بالشكل الصحيح، عن طريق التفكير العقلاني الصادق المتجرِّد من كلِّ أشكال العواطف التي لا تسمن ولا تغني من جوع.. إن هذا الإنسان مسكينٌ محرومٌ من استغلال طاقات عبقريته المخزونة في ذاته. إنه فاشلٌ سواء علم أم لم يعلم. إنه كالباصق

على ذكائه بقذارة ما ينطق به، أو يكتبه من التفاهات والغباوات، حتى وإن شعر بشيءٍ من السعادة والراحة، فالفرق شاسعٌ والبون واسعٌ بين الإيمان الصحيح والإيمان المريح.

يعتقد البعض أن التوفيق بين الرغبات الإنسانية الجامحة في التعبير عن القناعات المتعارضة، أمرٌ ممكنٌ في ساحة الحوار، فيقولون مثلاً: «حريتك في التعبير عن رأيك تنتهي عندما تبدأ حرية الآخرين في التعبير عن آرائهم».

والصواب عندي في ذلك أن يُقال: (حريتي الفكرية لا تنتهي عند حرية الآخرين)، بل أتصادم معهم ثقافياً ومعرفياً، وأقارعهم بالحجج والأدلة فوق أرض الاحترام المتبادل، وتحت مظلة آداب الحوار.. والرأي الأقوى في براهينه سينتصر على الأضعف في نهاية المطاف، وسيبدو أكثر إقناعاً للمتلقي العقلاني المنصف، مهما طال أمد تلك المناظرات والحوارات والمقارعات.

هكذا هو الإنسان

إن جميع تحولات الإنسان وتبدلاته ووداعاته ونهاياته ناقصةٌ، إلا الوفاة، فإنها التحول الكامل والوداع النهائي الكلي الوحيد الأكيد، ولذلك يهرب الناس منها ويخشونها ويهابونها، ويبذلون أقصى ما بوسعهم لتجاهلها وتناسيها والفرار منها؛ بكل ما يملكون من وسائل الترفيه وأسباب العلاج، وأنواع الغذاء وأدوات الصراع من أجل البقاء.

إن كل تغيّرٍ أو تغييرٍ ضخم هو انتقالٌ من طورٍ إلى طورٍ آخر، وكل الانتقالات الكبيرة مخيفةٌ ومرعبةٌ وشاقةٌ على الإنسان؛ لأن الجديد مجهولٌ غامضٌ والقديم مألوفٌ محبوبٌ؛ ولذلك يخاف الإنسان من الموت، ومن كل تغييرٍ عظيمٍ مشابهٍ له، أو قريبٍ من حجمه، مهما كانت مبرراته و دوافعه وعوامله.

إن الإنسان ليجد في مفارقة قناعاته ومسلماته وأفكاره وموروثاته، وكل ما قد اعتنقه وورثه واعتاد عليه، من الصعوبة

والذعر والألم النفسي حداً لا تطيقه إلا قلةٌ قليلةٌ من البشر، وهذا هو السبب الخفي، والسر الجوهري لثبات الناس على عاداتهم وتقاليدهم، ومذاهبهم ومناهجهم التي تبرمجت وصُقلت أذهانهم ونفوسهم عليها، وما يدخل تحت هذا الصقل من التصورات والرؤى والمعتقدات والأفكار والقناعات، سواء الأخلاقية أو الاجتماعية أو الثقافية أو غيرها، حتى لو شعر بعضهم بخطئها أو قصورها، أو بوجود ما هو أفضل أو أكمل منها.

الناس لا يحبون الطبيب الصادق معهم في تشخيص أمراضهم، بالقدر الذي يحبون فيه الطبيب المراوغ الذي يكذب عليهم ويستغفلهم ويخادعهم، والذي يقدم لهم المسكنات والمهدئات، دون إخبارهم بحقيقة الداء الذي يعانون منه ولو كان عضالاً، وهذا هو العامل الحقيقي لازدهار أسواق الجهل والأساطير والخرافات والأوهام، التي لا يستطيع الربح فيها إلا من يتقن أدوات اللعبة، ككثيرٍ من الوعاظ وبعض رجال الدين في غالب المجتمعات.

ولكل ما سبق ذكره أجدني دائماً متفهماً لرفض الآخر، ومصادمته ونبذه إذا كان يحمل فكراً مخالفاً للعرف الفكري العام في مجتمع ما، حتى لو شعر الرافضون له أو المتصادمون معه أن طرحه صحيحٌ وسليمٌ، ومدعوم بالحجج العقلية والأدلة والبراهين الكثيرة الصائبة، ودون النظر بعين العقل أو محاولة التأمل في ذلك الطرح الحديث.

إن معارضة المجتمع لفكرة «كبيرةٍ» معينةٍ، أو لمنظومة أفكارٍ

ضخمةٍ مترابطةٍ، لا تستلزم بالضرورة، اقتناع الرافضين بخطأ تلك الفكرة أو المنظومة، بل هو الخوف من التغيير والتحول والانتقال من المعروف المحبوب إلى الغريب الغامض، أو الخوف من أن يكون التسليم بصحتها باباً للدخول في عالم المجهول ودهاليزه المهابة، التي يخافها الإنسان كما يخاف من الوفاة والانتقال إلى ما بعدها أو إلى المثوى الأخير.

☆ ☆ ☆

آوّاه.. ما أضخم النقائص العقلية في كثيرٍ من البشر.

إنه لا مثيل لغرابة هذا الكائن المهزول المسحوق بين السماء والأرض، إذ إن كلَّ فردٍ من أفراد هذا الجنس البشري التائه الحائر البائر الأحمق المجنون العابث المضطرب منذ الأزل، يزعم ـ في غالب الأحيان ـ أنه أفضل من غيره في كلِّ شيءٍ، فدينه حقٌّ، ومذهبه سليمٌ، وعرقه رفيعٌ، ومنطقته مقدسةٌ، وفكره صوابٌ لا غبار عليه إطلاقاً، بل لا يمكن أن يكون عليه غبارٌ أبداً.

أما بقية أفكار ومذاهب وأديان وقناعات مليارات البشر، فهي في نظره ضلالاتٌ مبينةٌ، وكذلك أعراقهم وأوطانهم وأصولهم ومناطقهم، فكلها عنده أقلّ قيمةً ومنزلةً وقدسيةً من نسبه وأراضيه!

هكذا هو الإنسان في مختلف العصور؛ وليته اكتفى بذلك، بل ذهب يقاتل غيره، إما بحثاً عن الاعتراف به في حال كونه ضعيفاً مهمّشاً لا قيمة له، أو طغياناً واستكباراً ورغبةً في فرض مزيدٍ من نفوذه في حال كونه قوياً بارزاً متنفذاً.

إن ذوي الإنصاف والاعتدال والحياد والتوازن في الحكم على أمور المختلفين معهم أو عنهم قلّةٌ. وهذا هو سبب شقاء البشرية منذ فجر التاريخ وحتى اليوم.

إنه كلما زاد عدد المتوازنين والمحايدين والمنصفين في الحكم على الأمور، والقادرين على النظر في مذاهب وأفكار ورؤى وخصائص الآخرين بتجرد من عواطف العصبيات الدينية أو القبلية، أو المذهبية أو العرقية أو المنهجية أو الفكرية، أو القومية أو الجنسية أوالطبقية، أو غيرها من أشكال وألوان العصبيات المقيتة التي تتعدد وتختلف أزياء لابسيها.. إنه كلما زاد عدد أولئك النوادر الأنقياء، ارتقت معهم الإنسانية، وحلّقت أطيارها في رحاب السلام والمحبة والتعايش والسعادة والصفاء والوئام.

العصافير تحلق كل يوم في الفضاءات، تاركةً أعشاشها وفراخها، بحثاً عن أقواتها وأرزاقها، التي قد تكون بعيدةً جداً عنها. وكذلك العقول السويّة، يجب أن تحلق في سماوات المعرفة بحثاً عن أقوات الأرواح وأرزاق الأذهان، مهما كانت بعيدةً عنها، فقد يجد الإنسان العاقل المميز السوي غاياته الثقافية وضوالّه المعرفية في مناطق أخرى بعيدة، تختلف أديانها ومذاهبها العقائدية، أو رؤاها الفكرية أو مرتكزاتها الأخلاقية وغيرها، عن السائد في مجتمعه، والمسيطر عليه من الثقافات المألوفة المتوارثة.

الإنسان النادر المثالي ـ في نظري ـ هو الذي يحمل سلته الثقافية معه دائماً، ويتجول بها في أسواق ثقافات الشعوب، متنقلاً

بين دكاكينها المتمثلة في المجالس والمنتديات الثقافية، والندوات والمحاضرات والمؤتمرات والملتقيات، والكتب والمؤلفات العلمية، والأفلام والمقاطع الصوتية، والرسومات والمنحوتات والصور والخزفيات، وما يدخل في حكم التصوير والفن التشكيلي؛ بالإضافة إلى الدواوين الشعرية والروايات الأدبية، وغيرها من المصادر المسموعة أو المشاهدة أو المقْروءَة. . .

فيختار من البضائع المعرفية المعروضة في أسواق الفكر والثقافة ما يناسبه، ويقنع عقله من البضائع المعلوماتية المختلفة، ويضعها في تلك السلة بتجردٍ وحيادٍ، دون أن يلتفت إلى العوامل التي تصرف المتعصبين وغير المحايدين عن الأخذ بالجميل أو المفيد من نتاج غيرهم.

وإذا اكتشف يوماً أنه وضع في سلته المعرفية معلومةً خاطئةً، أو معلومةً ظهر له ـ من خلال حواره مع غيره أو بحثه عنها ـ ضعفها أو بخس ثمنها، أو أنها تتصادم بقوةٍ مع قناعةٍ أخرى من قناعاته العريقة العتيقة الأثقل وزناً منها، وجب عليه إخراجها ـ أي المعلومة ـ ورميها فوراً في سلة المهملات دون ترددٍ، مع ضرورة الاحتفاظ بسلة المهملات أيضاً؛ فالأفكار والقناعات تتغير باستمرار، وربما احتاج الإنسان يوماً الرجوع إلى معلومةٍ قديمةٍ ألقاها في سلة مهملاته، دون إدراكٍ لقيمتها الحقيقية الثمينة.

ولذلك أقول دائماً لرفاقي: كنتُ في السابق دوغمائياً متصلباً راديكالياً متطرفاً جداً دينياً وفكرياً، لا أضع في سلتي إلا ما يتفق

تماماً مع المألوف أو السائد، أو المقدس الموروث في مجتمعي، ثم أصبحتْ سلتي الثقافية ـ بعد انعتاقي وكسري لبوتقة انغلاقي ـ مليئةً بما لذّ وطاب من المعارف الثقافية المتنوعة الاتجاهات، والأفكار والقناعات المختلفة المشارب.

عزيزي المؤدلج المتعصّب المتصلّب المتنطّع: حاول أن تتحرر من الأغلال.. جرب أن تفكر خارج الإطار.. خارج الصندوق.. جرّب أن يغرد عقلك خارج السرب.. ما هي المشكلة عندما تجد حقيقة قضيةٍ ما، أو الإجابة عن سؤالٍ ما، أو معلومةً جديدةً سليمةً في موضوعٍ ما، عند قومٍ آخرين يختلفون عنك، أو بعيدين عن موروثاتك، أو عند فردٍ من أفراد مجتمعٍ آخر؟!

لابد ـ عند طه حسين ـ أن يتجرَّد الناقد من كل شيء، وأن يستقبل النصَّ وهو خالي الذهن مما سمعه عنه، وأن يخلي نفسه من القومية ومن الديانة والطائفية.

وبناءً عليه أو قياساً عليه أقول: لابد أن يتجرد الإنسان من كلِّ شيء، وأن يدخل تلك الأسواق الثقافية التي أشرتُ إليها، وهو خالي الذهن من كل ما سمعه أو قرأه أو شاهده عنها.

مشكلة غالب البشر وطامتهم الكبرى، التي ساهمت في إشعال وتأجيج نيران شقائهم وحروبهم، وأراجيفهم وعذاباتهم وترهاتهم، وسخافاتهم ومعاركهم التي لا تنتهي، أن الواحد منهم إذا رفض قوماً أو كره مذهباً أو عادى مجتمعاً لأي سببٍ أو أسبابٍ، فإنه

يرفض كلَّ ما عند أولئك القوم، وكلَّ ما في ذلك المذهب أو المجتمع جملةً وتفصيلاً!

والمشكلة الأعوص والكارثة الأفظع، تكمن في عدم تفريق كثيرٍ من هذه الكائنات البشرية بين النقد والإساءة، فعندما تنتقد قناعةً من قناعاتهم، يتهجمون على شخصك، متوهمين أنك تسخر منهم.

شذوذ العباقرة!

يربط البعض العبقرية بالوراثة، ويراها البعض الآخر مرادفةً للجنون، أو مرحلةً أولى من مراحله. أما العرب قديماً فقد جعلوا المبيت في «وادي عبقر» غايةً يسعى إليها الشاعر للحصول على تأييد قرينٍ من الجن يلقنه، وقد أورد صاحب الجمهرة وغيره قصصاً لا حصر لها في ذلك. ومن التوافق اللفظي الجميل أن أحرف كلمة العبقرية في اللغة الانجليزية متوافقة مع أحرف كلمة (جني) العربية وهو genius ومعناه المسكون بالمارد.

أما ارتباط العبقرية بالشذوذ فله شأنٌ آخر وحديثٌ ماتعٌ، فقد تواترت الروايات عن شذوذ نوابغ وعظماء البشر، وليس الأمر مقصوراً على الشذوذ الجنسي الذي قد يتبادر إلى ذهن القارئ للوهلة الأولى، بل أقصد الشذوذ بمفهومه العام الذي لا أظنه يحتاج إلى كثير شرحٍ، فهو مخالفة السائد والمألوف.

فلو تأملنا في شخصيات كثيرٍ من العباقرة والمشاهير والنوابغ

والأذكياء لخرجنا، بنتيجة مفادها وجود قاسمٍ مشتركٍ يجمع بينهم غالباً، وهو ما قد يصفه البعض بالعلل العقلية أو الخلقية، أو التصرفات الغريبة، أو الأمراض النفسية أو التوجهات الشاذة.

فمنهم من جمعهم «جنون العظمة» كالمتنبي وهتلر وكاليجولا وأبي جهل وصدام حسين وستالين وآرثر شوبنهور ونابليون وموسوليني ونيرون وغيرهم.

ومنهم من جمعهم الشذوذ عن المتعارف عليه «بترك الزواج» كشيخ الإسلام ابن تيمية، وابن جرير الطبري وأفلاطون وإسحاق نيوتن، والإمام الزمخشري وكانط وبيتهوفن وسيد قطب وسارتر وغيرهم، فقد عاش هؤلاء العظماء عزاباً طيلة حياتهم.

ومنهم من شذَّ عقدياً، كالنبي الكريم محمد الذي شذَّ عن مجتمعه شذوذاً جميلاً ذكيًا ديناميكيا، فقد اعتزل قومه وترك معتقداتهم الشركية، وخالف مجتمعه العابد للأوثان، وانقطع في غار حراء، فأكرمه ربه برسالته الخالدة الذكية التي اعترف بعظمتها مكذبوه قبل مصدقيه، بل وقد حظي جانب ذكاء النبي الشاذِّ عن عقيدة قومه بنصيبٍ وافرٍ من البيان، ويأتي على رأس ذلك كتاب العقاد الشهير الذي جعل عنوانه «عبقرية محمد».

ومن الشاذين عقدياً أيضاً عبدالله القصيمي، الذي شذَّ في اتجاه آخر تراه الأكثرية منا شذوذاً سلبياً، رغم أن ذلك التحول ـ الذي يصفه البعض بالانتكاس ـ صنع لنا ثورةً أنتجت ثروةً فكريةً هائلةً ما زالت تثير الجدل الواسع حولها حتى اليوم.

ومن النوابغ من كان مثلياً كسقراط ودافنشي وتشايكوفسكي وأبي نواس، وأوسكار وايلد ولورانس العرب والاسكندر الأكبر وشكسبير وبايرون وغيرهم الكثير؛ وقد أوردتُ أمرهم هنا ـ رغم سلبيته ـ كشاهدٍ على الموضوع فقط. ومنهم من كان شذوذه خَلْقيا لا إرادة له في حصوله، وأعني بذلك تحديداً (دمامة الوجه وقبح الصورة) كالحطيئة والجاحظ وتولستوي وغيرهم.

تلك الأسماء ليست إلا قطرةً في بحر الشخصيات المخالفة للسائد والمعروف ـ إن صح التعبير ـ وهناك شذوذاتٌ متفرقةٌ أخرى لا تنتهي؛ ومن الطريف في ذلك مثلاً قصة الأديب الكبير عباس العقاد وكلبه «بيجو»، فقد كان يصطحبه معه في رحلاته بالقطار بين القاهرة والإسكندرية فترةً طويلةً، وكان يحبه ويهتم بمشاعره بشكلٍ مفرطٍ، وكتب فيه المقالات التي كان آخرها مقالٌ في رثاء هذا الكلب بعد وفاته، وللأديب توفيق الحكيم أيضاً مع حماره قصصٌ وأحداثٌ غريبة، ومجموعة من الكتابات التي تدور حولها بعض علامات الاستفهام والتعجب.

ومن الخطأ ـ في رأيي ـ اعتقاد البعض أن درجة الذكاء العالية في شخصٍ ما، كفيلة بوصول سفينته إلى برِّ الإبداع الفريد، والنبوغ المتميز، والعبقرية الملموسة النتائج على أرض الواقع. والصواب أن الذكاء لا يُحقق ذلك الوصول إلا إذا ارتبط بدوافع إنجازٍ قويةٍ، وظروفٍ اجتماعيةٍ ومادية ونفسية، قد يكون بعضها ظاهراً للعيان جلياً سهلاً؛ وأكثرها عكس ذلك، وقد يكون الشذوذ نتيجةً حتميةً

لتمازج تلك الدوافع والظروف الغامضة ـ وبشكل معقد ـ على المدى البعيد في كثير من الأحيان.

عزيزي القارئ:

لا تبتئس إذا وجدتَ فيك ما يصفه الناس بالشذوذ أو الغرابة أو القبح أو الانحراف أو حتى الجنون.

بل يجب عليك أن تفرح؛ لأن ذلك سرٌ من أسرار الطاقة العبقرية.

التغريب ورغبة التغييب

يتشدّق الراغبون في استمرار تغييب ألباب أبناء الوطن وتعطيلها عن العمل الطبيعي المفترض، لتحقيق أهدافهم الشخصية الكثيرة الموغلة في الانحراف المقنّع بقناع الدين.. يتشدقون بمصطلح (التغريب) الذي جعلوه سلاحاً يشهرونه ويطلقون رصاصةً على كلِّ ما لا يعجبهم من المقالات والخطب والمؤلفات والكلمات والأطروحات والنصوص الأدبية وغيرها، وعلى كلِّ مَن يحمل فكراً أو قناعةً أو رأياً مخالفاً لما يريدون أو يألفون.

لقد أفرط أتباع التيار المتنطع في الدين، كما أسرف علماؤه وحفظة نصوصه ومشرِّعوه وخطباؤه وشعراؤه وأساتذته وباحثوه الاجتماعيون وغيرهم من رموزه ووعاظه ومنظّريه، في نعت كلِّ جديدٍ عليهم أو غريبٍ عنهم بالتغريب، إذا تعارض مع نزواتهم ومطامعهم الخاصة، وفي وصف كلِّ مجددٍ من المفكرين والأدباء الحداثيين بالتغريبي المفسد والخائن لوطنه ومجتمعه، إذا رأوا في طرحه ما يهدد كياناتهم الضخمة الكرتونية!!

ولا أدري في الحقيقة متى ولا كيف سيعالج هذا العشق المرضيّ الفظيع لهذا الانغلاق النرجسي والغرور الغبي، الذي يتعاملون من خلاله مع غيرهم تعاملاً استعلائياً مجحفاً تفوح منه روائح العنجهية النتنة.

أهلاً بما يصفه هؤلاء بالتغريب، إذا كان سيجعلنا ننافس بقية مجتمعات الأرض في ميادين النجاح والتطور والإبداع والحضارة والنظام والقانون والعدالة والإنسانية والمساواة.

أهلاً وسهلاً به إذا كان سيحقق أمانينا الطبيعية ومطالبنا المشروعة، التي عجز التشدد والتطرف الديني المسيطر علينا عن تحقيقها، رغم صبرنا الطويل عليه.

مرحباً مرحباً بما يصفه هؤلاء ـ حمقاً ـ بالتغريب السلبي، إذا كان سيجعلنا نركض في ساحات الحياة، التي أمرنا الله بعمارتها والعمل لها دائماً بكل عزمٍ وحماسٍ وكأننا نعيش فيها أبداً.

أهلاً وسهلاً ومرحباً بكل فكرةٍ جديدةٍ سليمةٍ، لا تتعارض مع قاعدةٍ شرعيةٍ واضحةٍ وصريحةٍ تماماً، ومتفقٍ عليها عند جميع علماء الإسلام.. أهلاً بها مهما كان مصدرها، فالحكمة ضالة كلِّ عاقلٍ سويّ متزنٍ طامحٍ لرفع لواء التنمية الحقيقية في سماء وطنه.

أما المسائل والقضايا التي تدخل في دائرة اختلاف العلماء، فلنا الحقُّ في الأخذ بأيِّ رأي منها، ولنا الحق في استيراد أيّة فكرةٍ إيجابيةٍ شرقيةٍ أو غربيةٍ، وتطبيقها في بلادنا دون ترددٍ، فخلاف علماء الأمة رحمةٌ بها وبأهلها كما يقال، والهلاك والخسران لمن

يرفض هذه الرحمة والسعة والمرونة من المتنطعين الضالين.

يقول الأصوليون: إن الأصل في كلِّ الأشياء الحلُّ والإباحة، ما لم يرد دليلٌ على التحريم، ولكن بعض بني قومنا قلبوا هذه القاعدة رأساً على عقب فجعلوها هكذا: الأصل في كلِّ الأشياء الجديدة الخطرُ والحذرُ والريبة والشك والمنع والرفض والمعارضة والانتقاص والحرب الضروس، حتى يثبت أنه يتوافق مع توجهنا، وما يعجبنا وما يتفق مع رغباتنا الشخصية فقط، وما نرجحه نحن دون غيرنا من الناس، حتى وإن أيّده أكبر علماء الإسلام ومفكروه، الذين لا يتفقون معنا في تعصّبنا الأعمى ومصالحنا المستترة.

إن الواصفين لجهود التنويريين والحداثيين بالتغريب، هم الذين رفضوا (تعليم البنات) قديماً باعتباره تغريباً، ثم أصبحوا يتسابقون على تسجيل بناتهم في المدارس والجامعات، بل يتصارعون على «الواسطة» عند ارتفاع عدد المتقدمات وقلّة المقاعد.. وهم الذين رفضوا الفضائيات عند بداية قدومها، وكانوا يصفون من يرون على منزله طبق استقبالٍ (دش) بأقذع الأوصاف وأحقر الصفات، ثم أصبحوا اليوم يتنافسون في زيادة عدد القنوات الموجودة في منازلهم، بل وفي المشاركة في كثيرٍ منها أيضاً، إن استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.. وهم الذين كان أسلافهم ـ قديماً ـ يقفزون على المنازل في بعض قرى «نجد» وغيرها، بحثاً عن أجهزة المذياع (الراديو)، عند بداية دخولها إلى المملكة، بحجة الحسبة والنهي عن المنكر، حيث كانوا يجمعون ما يحصلون عليه من تلك

الأجهزة، ثم يكسرونها ويحرقونها بعد صلاة الجمعة أمام جامع القرية أو الهجرة، كما حدّثني بذلك غيرُ واحدٍ من كبار السن الذين أثق برجاحة عقولهم وقوة مصادرهم.

لقد جرَّب المجتمع سيطرة التشدد الديني الفوضوي على الناس، وجرّب تسلط رموزه المتخبطين سنواتٍ طويلةً جداً، ولم نستفد من ذلك إلا ضياع النظام والأمن والعدالة، وغياب الفرح والمرح والسعادة، وتصاعد أخطر الظواهر السلبية وانتشارها بيننا، ومنها ـ مثلاً لا حصراً ـ ظاهرة الإرهاب، وظاهرة الإلحاد، الذي أعني به هنا (الإلحاد الخالص الصرف) الذي يرفضه كلُّ عقلٍ سوي ـ في نظري ـ، وكذلك ظاهرة الانتحار التي تتزايد في بلادنا يوماً بعد يوم بشكل فظيعٍ لافتٍ للنظر؛ بالإضافة إلى ظاهرة العنوسة والبطالة والمثلية الجنسية، وغير ذلك الكثير من الظواهر التي تتفاقم بسبب سيطرة الإيديولوجية الدينية المتزمتة المتصادمة مع كلِّ جدي ومفيدٍ ممتعٍ للناس.

لماذا لا تُعطى الفرصة لغيرهم إذن؟ لماذا لا نجرّب أفكار الليبراليين وقناعات العلمانيين ودعاة الانفتاح والتغيير؟ أعطوهم الفرصة وجربوا واحكموا.

افتحوا لهم أبواب العمل على مصاريعها، وأبواب القلوب والعقول قبل ذلك.. ادعموهم وامنحوهم كامل الصلاحيات والوسائل وكافة أشكال الدعم الكثيرة الممنوحة للمتشددين دينياً، وانظروا كيف تكون النتيجة.

أعطوهم الفرصة الكاملة.. جرّبوا الثقة بهم ولن تندموا، وتأكدوا قبل التجربة أن النتائج ستكون إيجابيةً باهرةً نافعةً للوطن والمواطن قطعاً، فلا تلتفتوا لدعاة تغييب العقول المفلسين المساكين، الذين يصفون المختلفين معهم بالتغريبيين جهلاً وعجزاً وعلواً واستكبارا.

لماذا لا تفتح لهؤلاء النهضويين المميزين النبلاء مكاتب خاصةٌ مصرّحةٌ، للدعوة إلى ما يرونه نافعاً للمجتمع، ولإقامة مناشطهم ونشر وجهات نظرهم بين الناس في كلِّ مدن المملكة، على غرار مكاتب الدعوة والإرشاد ومراكز هيئات المنكر والمعروف مثلاً!

أليس من حقهم الوصول لأذهان وأفئدة الناس، بصورة توازي وصول الوعاظ وأمثالهم، وبطرقٍ ميدانيةٍ وأساليب منوعةٍ مرخّصةٍ، تحت إشرافٍ حكومي، تجعلهم قادرين على نشر أفكارهم بينهم، والتأثير عليهم دون رهبةٍ أو قيودٍ دينيةٍ متطرفةٍ.. إنهم مواطنون كالمتشددين دينياً، ومن أقلّ الإنصاف أن يحصلوا على كلِّ ما يريدونه من الامتيازات الممنوحة للتيار الآخر.

اللحية أقوى من جميع المؤهلات.!!

أجل، إن بعض الملتحين في مجتمعنا ـ مع احترامي لهذه السنة النبوية ـ قادرون على قول ما يريدون لمن يريدون وفعل ما يريدون بمن يريدون، بالكيفيّة التي يريدون وفي الوقت الذي يريدون، دون أن يستطيع الاعتراض على ما يريدونه أحد، مهما كان ذلك الأحد.. ومهما بلغت درجة الخطأ أو الخطيئة أو الانحراف أو التلاعب أو الغطرسة أو التعسّف أو الإجرام أو التسلّط أو الضلال أو الوصاية أو العنجهية في أقوالهم أو أفعالهم.

نتفق على أن للدعاة والوعاظ ومن يدخل في حكمهم من «الملتزمين» دوراً يقومون به في المجتمع، ولا أحد ينكر أنهم ينشرون ـ أحياناً ـ بعض القيم والأخلاق الحسنة؛ ولكن الإشكال الجلي يظهر عندما يتحدث بعض الوعّاظ وغيرهم من رجال الدين في غير مجالهم، فيأتون بالعجائب والكوارث والطوام. والإشكال الأكبر من ذلك هو عندما يتصدَّر بعض الجهلة من الوعاظ للفتوى، متجاهلين الأنظمة الصادرة في هذا الشأن، وعلى رأسها القرار

الملكي الكريم الحديث، الذي أمر بقصر الفتوى على أعضاء هيئة كبار العلماء، ومن يأذن لهم الملك بذلك فقط.

إذن نحن نقف أمام إشكالين عويصين، فقد اعتاد المستفتون في مجتمعنا ـ للأسف الشديد ـ على قبول الفتوى وغيرها، من أي شخص يظهر على شكله الخارجي الالتزام بالسنن الدينية، حتى لو كان أجهل الناس بأحكام الشريعة الإسلامية، كبعض أئمة المساجد والمؤذنين والمتعاونين مع جماعات الهيئة وغيرهم.. واعتادوا أيضاً ـ أي الناس ـ على استفتاء بعض الشرعيين في كلِّ شيء، حتى لو كان ذلك الشيء خارجاً عن حدود معرفتهم ومجالهم واطلاعهم. والغريب هو أن فئةً لا يستهان بعددها من الوعاظ يتجاوبون مع البسطاء في ذلك بحماسٍ منقطع النظير، فلا يتورَّع الواحد منهم عن الإجابة عن أي سؤالٍ، حتى لو كان ذلك السؤال في موضوع يجهله تماماً، أو في مسألةٍ دقيقةٍ في مجالٍ عميقٍ خاصٍ، أو علمي شائكٍ صعبٍ على غير الملمِّين به، كالطب أو الهندسة أو الكيمياء أو الفيزياء أو علوم الفلك والذرة والبحار أو الفلسفة أو علم النفس أو الجيولوجيا أو التكنولوجيا أو الاقتصاد أو الأدب أو الإعلام أو القانون أو السياسة، أو غيرها من التخصصات الكثيرة المستعصية على غير أهلها.

إنهم غارقون في بحار الغباوات والحماقات والترهات والسخافات.. إنهم يتخبطون ويهذون في كل شيءٍ دون ترددٍ أو رهبةٍ أو حذرٍ.. لقد أصبح بعض رجال الدين في مجتمعنا ـ في

نظر العامة الدهماء والرعاع ـ علماء في كلِّ مجالات الحياة دون أيَّةِ مؤهلاتٍ مميزةٍ في غالب الأحيان.. لقد أصبحت المظاهر الدينية الشكلية أقوى من جميع الشهادات العلمية والخبرات العملية؛ حيث إنها تخوِّل صاحبها ـ في عرفنا السلبي ـ القيام بأعمالٍ كثيرةٍ غير مشروعةٍ ولا معقولةٍ دون أيّة ضوابط أو شروط، ومن ذلك الحديث في كلِّ الفنون والتخصصات دون استثناء، حتى لو كان المتحدِّث أجهل من حمار أهله فيها أو في بعضها!

وليت الأمر توقف عند هذا الحدِّ، فقد صار من الواجب على المتلقي الاقتناع بآراء الدعاة والوعاظ في كلِّ مسألةٍ من مسائل الحياة رغم أنفه.

إذا قال الشيخ شيئاً فيجب عليك السمع والطاعة والاستسلام والخضوع والخنوع، حتى لو كان رأي ذلك الشيخ معارضاً لقناعاتك الشخصية، أو مخالفاً لآراء علماء أو مفكرين أو فقهاء آخرين من خارج دائرته الضيقة، أو متصادماً مع كلام المختصين في مسألة من المسائل العميقة البعيدة كلّ البعد عن ثقافة غالب رجال الدين ومعرفتهم القاصرة وفهمهم السطحي المعوجّ.

أما إذا رفض الإنسان تقديس ذلك «الواعظ الجماهيري الشهير»، والانصياع لأفكاره وقبولها والترحيب بها، فحدِّثْ ولا حرج عن أشكال وألوان الهجوم الذي سيتعرض له من القطيع المؤدلج الثائر المبرمج على نطح كلِّ مختلفٍ مع رموزه بقرونه الحادة التي لا ترحم!!

إن المحتجَّ في بلادنا على أيّة قضيةٍ يقررها بعض (المشايخ) ضالٌ منحرفٌ، يستحق أبشع وأشنع وأفظع صور الإساءة في نظر شريحةٍ كبيرةٍ من المؤدلجين ومغيبي العقول في هذا المجتمع الغريب للأسف الشديد، حتى لو كان الاحتجاج على قضيةٍ فرعيةٍ يسيرةٍ من قشور الدين التي اختلف فيها الملايين من الناس، منذ عصر النبي محمد ـ عليه السلام ـ وحتى اليوم.

لا يحق للحليق الاحتجاج على ما يقوله الملتحون أبداً، وإذا حاول أن يثور أو يحتج أو يعمل عقله في كلامهم، أو يفكر بطريقته الخاصة التي تختلف عن طريقتهم، فإنه في نظر المتطرفين مستحقٌ للبصق على وجهه الفاسق!

إننا نعاني من دوغمائية وجمود ونرجسية المتنطعين دينياً في هذا الوطن. لقد بلغ الأمر حداً لا يمكن السكوت عنه إلى الأبد.. لقد ضقنا ذرعاً بهم في كل مكانٍ؛ فالتصلب الفكري والتطرف الأصولي، وحدّة الطباع المتصنعة وغلظتها، والتقعر في الألفاظ والتعالي عند الحوار أو النقاش، والنظر إلى المختلف معهم بعين الانتقاص والازدراء، سماتٌ مشتركةٌ تجمع هؤلاء الملائكة المنزهين المعصومين!! ومن ذلك ـ مثلاً ـ أن بعض رموزهم لا يرد السلام في مكتبه أو مكان جلوسه، أو درسه أو عمله إلا على الملتحين وقصار الثياب فقط!!

أعود للموضوع بعد هذا الاستطراد اللاإرادي فأقول: إن تطفلَ بعض الإسلامويين في بلادنا على المجالات العلمية التي يجهلونها

قديمٌ متوارث، فعندما تحدَّثَ عددٌ من الدعاة ورجال الدين السعوديين السالفين ـ رحمهم الله ـ عن «كروية الأرض» مثلاً، انطبق عليهم تماماً المثل القائل: (من تكلَّم في غير فنّه أتى بالعجائب)، فقد بلغ الحال بهم إلى القطع والجزم بعدم كروية الأرض، ولهم مؤلفاتٌ شهيرةٌ في ذلك، أنصح بها محبي الفكاهة والضحك.

واستمر الحال كذلك، حتى ظهر علينا في هذا العصر جيلٌ جديدٌ من الدعاة والوعاظ، الذين أصبحت متابعتهم شبيهةً بمتابعة عروض المهرجين والممثلين في صالات العروض والمسارح، فهم لا يقلون عن أسلافهم الغابرين في التخبط والظلامية والرجعية والهمجية والانغلاق والتعصب الأعمى المقيت!

لقد كانت وما زالت ساحات الوعظ والإرشاد والإفتاء في بلادنا مرتعاً خصباً للمتلاعبين بالدين، ومناخاً مناسباً للعابثين بالمعرفة والفكر والثقافة، في شتّى الميادين وعلى الأصعدة كافةً، ونأمل أن لا تستمر على هذا الحال البائس الذي يرثى له.

أتمنى أن يصدر قراران سريعان صارمان، يمنع الأول منهما غير المتخصصين في الشريعة من الفتوى عامةً، ومن الفتوى في مواقع التواصل الاجتماعي خاصةً، فقد زاد عبثهم في تلك المواقع وتجاوز الحد. كما أتمنى أن يشمل هذا القرار ضرورة اختيار المرنين والمتسامحين من العلماء، وإبعاد وعزل المتنطعين المتطرفين المتصلبين منهم، فديننا دين يسرٍ وسماحةٍ، ولن يُشادَّ

الدين أحدٌ إلا غلبه، كما ورد عن النبي عليه السلام في الحديث المتفق عليه.

أما القرار الثاني الذي نأمل أن يستعجل المسؤولون في إصداره أيضاً، فهو القرار الذي يمنع المتخصصين في العلوم الشرعية من الحديث في غير مجالهم، ما لم يكن الواحد منهم محيطاً ملمّاً بالمجال الذي يتحدث عنه.

وهناك أمرٌ آخر لابد من الإشارة إليه هنا، فقد أصبح الالتزام بالدين (ظاهرياً) وسيلةً للنصب والاحتيال في الأسواق، وتقديم غير الأكفاء ـ أحياناً ـ على من هو أكثر كفاءةً منهم عند التوظيف في مهنة معينة، تحت ذريعة «حسن الظن» أو تحت مسمى «التزكية»، وهو المسمى الذي نشره بيننا كثيرٌ من رجال الدين، كبديلٍ لكلمة «الواسطة»، لأنهم يستطيعون من خلاله ممارسة رغباتهم الشخصية في توظيف من يريدون، أو تفضيله على غيره من الناس في الجامعات والكليات، وغيرها دون أن ينتقدهم أحد. وهذه قضيةٌ خطيرةٌ جداً على المجتمع، وتهدّد جميع معايير العدالة ومقاييس المساواة، وقوانين الحقوق الإنسانية فيه، ولابد من الالتفات لها بحزمٍ، والوقوف أمامها بصرامةٍ وجديّةٍ، قبل أن يتسع الخرق على الراقعِ.

الحافظ المتقن الثبْت

تكرَّسَ في تراثنا العربي عامةً والإسلامي منه بشكل أخص، تعظيمُ شأن الحفظ والحث عليه، وتبجيل أصحابه ووضعهم في أعلى الدرجات والمنازل والرتب، فنجدهم يصفون عالماً مثلاً بقولهم الإمام الحافظ العلامة الثقة المحدث المتقن الثبْت، أو يمدحون طالب علم بأنه يحفظ الآلاف المؤلفة من الأحاديث أو الأبيات، وترد في ذلك التراث أعدادٌ لا تنتهي من الجمل التي يُفهم منها تعظيم شأن حفظ المتون وإتقانها، وأن ذلك هو سبيل الرفعة والسؤدد، كقولهم مثلا «من حفظ المتون حاز الفنون» وما شابه ذلك.

ورغم أن القرآن الكريم يأمر بالتفكر والتدبر والتعقل ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ﴾ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾، إلا أننا نادرًا ما نجد في نعوت البارزين والمشاهير في موروثنا الديني ما يدل على تطبيق هذه الأوامر القرآنية الكثيرة، فهل قرأ أحدٌ منكم مثلاً في تلك الكتب المتوارثة وصْف أحد الرموز بالإمام المفكر، أو الإمام العقلاني، أو الإمام الفاهم المتدبِّر؟!

ومن العجيب في ذلك أيضاً، أننا لا نجد أيّة إشارةٍ واضحةٍ عند علماء الجرح والتعديل لقدرة الراوي على استيعاب ما ينقله، أو فهمه بشكلٍ صحيحٍ، فضلا عن مناقشته العقلية له، فقد وضعوا للرواة عيوبًا تنقص قيمتهم وتسقط روايتهم أو تضعفها ومن أبرزها سوء الحفظ، وفحش الغلط والغفلة والوهم ومخالفة الثقات. .الخ

والمصيبة الكبرى والطامة العظمى، هي أن ضرر ذلك التهميش لشأن التفكير والإعمال العقلي ليس مقصورًا على تلك العصور الغابرة فحسب، بل تعداه إلى العصور المتأخرة المتتالية حتى وصل إلى حاضرنا الذي نعيشه اليوم.

فنجد غالب المعلمين في مدارسنا وجامعاتنا مثلا، لا يهمهم إلا أن يكون الطالب حافظاً للمناهج قادراً على تفريغ تلك المحفوظات في أوراق الإجابة في الامتحانات حتى ولو كان بعيداً كل البعد عن الفهم الصحيح لما حفظ، أو عن القدرة على التفكير السليم فيه ومناقشته بعد استيعابه، ثم إبداء وجهة نظره حوله.

إن حديثي السابق لا يعني انتقاصي للحفَّاظ، أو التقليل من شأن حفظ ما ورد في تراثنا العربي الجميل بكل ما فيه من نصوصٍ دينيةٍ أو أدبيةٍ أو غيرها، فهذا أمرٌ جيدٌ ومهمٌ بلا شك، ولكن المرفوض - في رأيي - هو المبالغة في ذلك إلى درجة تُقتل معها ملكة التفكير، وتغلق بسببها أبواب العقول بشكل شديد يصل أحيانا إلى انتقاص شأن المفكرين، أو حث عامة الناس على تجنب التعمق في دلالات المحفوظ ومعانيه، أو محاولة ربطها بالدراسات العلمية

الحديثة والتطور المعرفي المعاصر، ومناقشتها وبيان وجهات نظرهم الخاصة حولها.

أليس من الجميل أن نستبدل مثلاً قولهم (من حفظ المتون حاز الفنون) بقولنا: من فهم المتون وغير المتون، وأخضعها لعقله ـ قبل قبولها ـ حاز الفنون والقدرة على التفكير المثمر النافع له في حياته.

أما آن الأوان لخلع رداء التقليد والتبعية، وتقديس التلقين الأجوف الخالي من إعمال الذهن والقدرة على التحليل والحوار والنقاش، أما آن الأوان لتغيير حالنا البائس لعلنا نلحق ولو بآخر مقصورة في قطار التقدم والحضارة والإنتاج النافع والإبداع البشري الذي نرى شمسه تشرق في سماوات الأمم والشعوب المفكرة التي ملأت الأرض اختراعا واكتشافا وابتكارا فاق حدود الوصف في روعته وجماله وإتقانه.

لقد أبدع القوم في صنع كل شيءٍ، وأبدعنا نحن في استهلاك كل ما أبدعوه، وأبدعنا قبل ذلك أكثر وأكثر في حفظ المتون وإغلاق أبواب التفكير، فعجزنا عن منافستهم أو محاولة منافستهم في مختلف مجالات الحياة.

إن أمةً تقدس حفاظها فقط، ولا تحترم عقول مفكريها ومبدعيها ومبتكريها ومخترعيها ونوابغها، ولا تلتفت لهم في مختلف المجالات، لهي أمةٌ تستحق بجدارة جميع نعوت التخلف والجمود والتقهقر والانغلاق.

ودامت عقولكم مفكرةً.

صاحب الفضيلة «التائب»!

يهجر أحدُهم ما يعتبره الواصفون له بالتائب أمراً تنبغي التوبة منه، كالعزف والتمثيل مثلاً، أو يعتزل رياضةً جميلةً جلبت له الشهرة وحب الناس ككرة القدم، أو يتوب توبةً حقيقيةً مما يجب الإقلاع عنه بإجماع العقلاء، كالتفحيط أو استخدام المخدرات أو الجرائم الأخلاقية أو ما شابه ذلك من الأخطار والأضرار والأوزار وغرائب الأطوار.

ثم تظهر عليه ملامح وسمات ما يسمى «الالتزام»، فيرتدي ثوباً قصيراً، ويعفي لحيته، ويلازم السواك وغيره من السنن المحمديَّة على صاحبها السلام، بل وغير المحمديَّة أيضاً كلبس «الشماغ» بلا عقال، أو لبس العباءة الرجالية «البشت» أو التعطّر بعطورٍ معيّنةٍ لها رواجٌ كبيرٌ في وسطه الجديد كدهن العود وغيره.

وكل هذا مقبولٌ بل جميلٌ أحياناً، ولا غبار عليه ولا إشكال فيه أبداً، ولكنَّ الإشكالَ العويص واضحٌ فيما يقوم به بعض أولئك

«التائبين» بعد ذلك التحوّل؛ فتجد منهم من يبدأ بتصدّر المجالس والتجمعات المختلفة ـ محذراً في البداية ـ من مغبّة طريقه السابق، أو واعظاً يصغي له مستمعوه؛ لمجرد أنه كان نجماً ذائع الصيت.

ثم ينتقل ـ مستغلاً الفرصة ـ إلى درجةٍ أعلى من ذلك، وفيها يكمن الخطر الذي أقصده، فيقحم نفسه في مجالاتٍ ليست له، ويبدأ الناس بالالتفاف حوله، وأخذ الآراء والفتاوى الشرعية وغير الشرعية منه، متجاهلين أنه لا يملك من «عناصر الجدارة» شيئاً، إلا إقلاعه عن فعلٍ مرفوضٍ أو محبَّبٍ عند الناس أو عند شريحةٍ منهم، إن صح اعتباره من عناصرها أصلاً!.

لا يتورّع صاحبنا عن الخوض في أيّة قضيّةٍ، حتى لو كانت من القضايا الشائكة التي يتوقف عندها كبار العلماء والمفكرين والباحثين والمجربين قبل إصدار آرائهم حولها، ولا يترك شاردةً ولا واردةً تُطْرَح عنده إلا أسهب فيها، وكأنّه فريد عصره الذي لم تنجب النساء مثله!!

ثم تتطور الأمور.. ويزداد جمهور «فضيلة الشيخ التائب أو المعتزل»، فتبدأ كثير من الجهات بالتعاقد معه، ودعوته لإلقاء المحاضرات والمشاركة في الندوات والمناشط والبرامج الإعلامية والاجتماعية المختلفة.

إن هذه «الكارثة المستشرية» خطيرةٌ جداً، وقد تصل بالمجتمع إلى نتائج لا تحمد عقباها على المدى البعيد. فماذا ننتظر من مجتمعٍ يساهم في توجيهه أشخاصٌ لا يملكون من المؤهلات

العلمية، أو الخبرة الحياتية إلا توبةً من سلوكٍ مشينٍ أو اعتزال هوايةٍ أوصلتهم للشهرة؟ مع ضرورة التفريق هنا بين الهوايات الجميلة والانحرافات الذميمة، فالغناء والتمثيل والرياضة مثلاً ـ في نظري ـ هواياتٌ حميدةٌ لها رسائل وأهدافٌ ساميةٌ في كثير من الأحيان، ولا تصح مقارنتها بالتفحيط أو الإدمان أو غيرهما من السلوكيات السيئة المتفق على ضررها وضرورة تركها؛ ولكنَّ تلك الهوايات ـ رغم جمالها ـ لا تخوّل ممارسها أو معتزلها حقَّ الإفتاء والحديث في الدين ولا في غيره، ما لم يكن ملمّاً بما يتحدث عنه.

وأستثني من المقصودين في هذا الموضوع ـ بلا تردد ـ مَن كان يملك مؤهلات ومقومات البروز الحقيقية التي حال انخراطه في طريقه الأول دون إظهارها وصقلها والاستفادة منها، وأستثني أيضاً مَن عمل على تطوير نفسه بعد تغيّر حاله، حتى نال من المعرفة والاطلاع حظاً ثقيلاً جعله مستحقاً للتصدّر والتميّز والحديث والريادة، رغم يقيني أن إقلاعه عن ممارساته المنحرفة الأولى، أو اعتزاله لمجاله السابق الذي أشهره، سيبقى هو «العامل الأول» في بروزه ونجاحه في مجاله اللاحق.

أخشى أن يخرج أو أنّه قد خرج من شبابنا مَن يتعمد سلوك بعض المسالك المرفوضة، أو ممارسة هواياتٍ تجلب الشهرة، أو الدخول في مجالاتٍ تعتبرها شريحةٌ منّا مِن المحرمات «مدة معينة»، قبل أن يُنهي تمثيليَّته باعتزالٍ أو «توبةٍ مصطنعة"؛ ليحقق بعد ذلك بصورته الجديدة من النجومية والمكاسب المادية وغيرها

ما لا يستطيع أكثر الناس تعباً واجتهاداً وطموحاً ودراسةً ومثابرةً وتجربةً في الحياة تحقيقه والوصول إليه!

والأدهى والأمرّ من ذلك، هو تبوؤ بعض التائبين أو المعتزلين مناصب رفيعةً في مؤسساتٍ دينيةٍ أو اجتماعيةٍ أو إعلاميةٍ دون استحقاقٍ لها، وكذلك استغلال بعضهم ثقة الناس به في أكل أموالهم بطرقٍ غير مشروعةٍ لا تعدّ ولا تحصى.

أكبر إشكالات المعلمين..!

تعلّمنا منذ أن كنا صغاراً في المدارس أن ما تحمله المقررات الدراسية هو الصواب الذي لا غبار عليه، بل الذي لا يمكن أن يكون عليه غبارٌ أبداً. تعلمنا أن التسليم بصحة كلِّ ما يطرحه المعلّم علينا هو الأسلوب الأمثل، والنهج القويم الذي يجب على الطالب الالتزام به، دون نقاشٍ أو تردُّد. وكانت النتيجة لذلك الخلل هي ما نراه اليوم من كثرة الفاقدين للقدرة على الحكم على الأشياء من أبناء الوطن وبناته في كثير من المجالات، فنجد الواحد منهم ـ وقد بدأ الشيب يخطُّ في عارضيه ـ يقف عاجزاً عن اتخاذ موقفٍ ثابتٍ واضحٍ من أمرٍ معيّن، وعاجزاً عن الحكم على كثيرٍ من الأشياء السهلة الجليّة التي تمر به يومياً، أو التعبير عن وجهة نظره حولها، إلا بعد الاستعانة برأي غيره، أو الانضمام للصوت الأعلى الأكثر تجييشاً للعواطف والمشاعر، أو الأكثر تأييداً وأتباعاً!!

تعلّمنا في مدارسنا، ومجالس علمائنا، وحلقاتنا، وكلياتنا، ومعاهدنا، وجامعاتنا، وغيرها من معاقلنا التعليمية، أن الانقياد

للمقرَّر، والاستسلام لمحتواه، يكفل لنا النجاح في المادة من جهةٍ، ونيل رضا الأستاذ أو الدكتور أو الشيخ أو غيرهم من الملقِّنين من جهةٍ أخرى، وأن التفكير في ذلك المحتوى، أو محاولة إعمال العقل فيه، بفرزه وفصل عناصره وتمييز بعضها عن بعض، وقبول المقنع لنا منها، والوقوف عند ما يُشكل علينا فيها، ومحاولة فهمها بشكلٍ مجرَّدٍ من (سُلْطة الملقِّن)، فضلاً عن نقدها أو التعمق الفاحص في بعض جوانبها اللامعقولة.. تعلمنا أن كلّ ذلك خطأٌ فادحٌ وانحرافٌ يجب على الطالب الابتعاد عنه والحذر منه؛ لأن له نتائج جسيمةً قد تؤدي إلى الرسوب في المادة، أو انفعال المعلم وتوبيخه للطالب، وربما معاقبته عقاباً جسدياً مؤلماً أو نفسياً مهيناً، كالاستهزاء به أمام زملائه على سبيل المثال.

لقد أفهمونا أن سبيل النقد والاعتراض والحوار والتفكّر، ورفض غير المقنع والمفهوم فجورٌ وضلالٌ عظيمان، وأن الاطلاع على الآراء الأخرى المخالفة لآراء القائمين على تلك المنظومة الأيديولوجية المحليّة الصنع جرمٌ شنيعٌ فظيعٌ، يجب على الطالب في المدرسة أو الجامعة أو غيرهما الإقلاع عنه والتوبة النصوح منه.

لقد كانت منشآتنا التعليمية وحلقاتُ التلقين في بلادنا ـ في نظري ـ وما زالت، ويبدو أنها ستظل للأسف الشديد، مقابر لملكات التأمل العقليِّ، والتفكير الصحيِّ السويِّ، والنقد الإبداعيِّ الهادف، المؤدّي للاقتناع بالمعلومة قبل التسليم للمعلم بصحتها. لقد كانت وما زالت قاتلةً ـ مع سبق الإصرار والترصّد ـ لعددٍ جمٍّ

من المواهب والقدرات. لقد سعى القائمون عليها طيلة العقود الماضية من عمر هذا المجتمع، إلى تجاهل وتهميش أهمية النقاش الموضوعي الإيجابي المجرَّد من سلطة الغير.

إن تلك المنشآت ـ والحال كذلك ـ وما يدخل في حكمها من مجالس تلقينٍ أخرى، ليست أماكن صالحةً للتعليم الحقيقي المفترض. إنها ليست إلا حظائر ملوثة تُكرِّس وتعزِّز وتُرسِّخ في عقول الدارسين فيها مفاهيم (ثقافة القطيع)، التي تجعل الجميع ينساقون ـ رغم أنوفهم ـ في طريقٍ واحد؛ لأن أيّة محاولة للمقاومة أو الاعتراض أو إعمال العقل، أو التفكير الحرّ فيما يقوله المسيطرون عليهم؛ تستلزم بالضرورة تعرض القائم بهذه المحاولة للنطح والجرح، وأحياناً للموت على يد بقية الأفراد.

أعود للموضوع فأقول: إن سياسة (التلقين الأجوف) الذي يطلب من الطالب (الانصياع الأعمى) للوصيِّ المُسيطر، فيروسٌ فتاكٌ زُرِع في أعماق الأجيال السابقة، ويجب علينا قتله والقضاء عليه فوراً، قبل أن يتغلغل أكثر في الأجيال الحالية، أو يصل للأجيال القادمة لا سمح الله.

يجب أن يكون للطالب الحقُّ في (مناقشة كلِّ شيء) دون حدودٍ.. دون قيدٍ أو شرطٍ.. وفي جميع المواد دون استثناء. إنه لمن المُتحتِّم على المسؤولين عن العملية التعليمية التركيز على هذا الجانب، ووضعه نصب أعينهم في الخطط التعليمية المستقبلية؛ إذا أردنا لشباب الوطن وشاباته أن يلحقوا بأبناء الشعوب المتقدمة

المنتجة الناجحة السويّة المبدعة، في مختلف ميادين النهضة البشريّة الحديثة الساحرة.

أتمنى أن يستشعر الناس عامة، والمعلمون والمعلمات وأساتذة الجامعات بشكل أخصّ وأكبر، خطر هذه (الجريمة البشعة) التي تغتالُ شخصيات الطلاب وملكاتهم ومواهبَهم العقلية، وقدراتهم على التعاطي مع الأشياء بشكلٍ سليم، والحكم عليها بطريقةٍ صحيحةٍ مستقلةٍ، وأن يسمحوا بجميع أنواع المناظرات والحوارات دون حذرٍ، وأن يفتحوا باب الاطلاع على المصادر والمراجع والمؤلفات والدواوين والروايات والمصنفات وغيرها من المناهل المعرفية الإنسانية كافة. يجب أن يفتحوا كل أبواب الثقافة على مصاريعها.. دون خوفٍ أو رهبةٍ؛ فالحجة الأقوى ستنتصر، والمقنع هو الذي سيسود حتماً بكل هدوءٍ ودون أدنى ضجيج.

لا بدّ أن يعلم جميع الناس في بلادنا صغاراً وكباراً.. ذكوراً وإناثاً.. أن أساليب التحفيظ والترديد والتسميع والتلقين وحشو المعلومات في الأذهان دون إقناع؛ يجب أن يعلموا أن هذه الأساليب انحرافاتٌ مقيتةٌ عن السبيل النبيل في التعليم، وأعني به سبيل (حرية الطالب) في الاطلاع على ما يرغبه، واختيار ما يقنعه ويراه عقله صواباً، لا ما يفرض عليه بالإكراه.

لقد نتج عن هذه العملية التعليمية التلقينية الخاطئة المعمول بها في مجتمعنا ـ كما أسلفتُ ـ ما نراه على أرض واقعنا من تخبّطٍ واضطرابٍ مؤلمين، في شخصيات كثيرٍ من أفراد المجتمع، وفقدانٍ

تامٍّ للقدرة على إبداء الرأي الشخصي الحُرِّ في أصغر وأدنى وأتفه المسائل والقضايا، ناهيك عن الكبرى أو الهامّة منها.. لقد نتج عنها هذا الانسياق الجماعي الملحوظ المرعب في طريقٍ واحدٍ، رغم أن كثيراً من المنساقين ـ رجالاً ونساء ـ، غير مقتنعين ببعض الأمور التي تُفرض بالقوة والإرغام عليهم، أو غير قادرين على التفريق بين المقنع وغيره أصلاً!.

لحظات الإبداع ونواميسها الخفيّة

غالبُ النشاطات الجسدية التي نمارسها في حياتنا اليومية لا يُشترط لإنجازها صفاء ذهن ممارسها صفاءً كاملاً، فتثبيت لوحةٍ في الجدار مثلاً.. أو أرشفة موظفٍ لعددٍ من المعاملات.. أو حرث الفلاح لقطعة أرضٍ.. أو القيام بإعداد وجبة طعامٍ.. أو غسيل الملابس.. أو ممارسة الرياضة.. أو غير ذلكً من الأعمال المشابهة، لا تحتاج إلا لجهد بدني فقط، وسيتم إنجازها حتى لو كان ذهن الإنسان معكراً أو مشوشاً، وبشكل لا يختلف كثيراً عن قيام الإنسان بإنجازها وهو في حالةٍ مزاجيةٍ عاليةٍ.

أما النشاطات الفنية المرتبطة بالإبداع والمشاعر والأحاسيس، فللحديث عنها شأنٌ آخر، إذ إنّه كلما زاد صفاء ذهن ممارسها زاد إتقانه لها وانجازها بشكل أفضل وأكمل.

ما أريد أن أصل إليه هو أن هناك أوقاتاً ثمينةً يبلغ فيها المزاج درجةً عاليةً من الصفاء، وتصل فيها الروح إلى مستوى مرتفعٍ من

النشوة، ويكون الذهن فيها متوقداً جداً، وجاهزاً للقيام بأعمالٍ إبداعيةٍ رفيعة المستوى، إذا أحسن الإنسان استغلال تلك الأوقات، وتوجيه تلك الطاقة.

أشعر أنا شخصياً بتلك الحالات الرائعة أحياناً، ومازلت عاجزاً عن الوصول إلى أسبابها بشكلٍ شاملٍ ودقيقٍ، فقد كنتُ أظن سابقاً أنها مرتبطةٌ بأمورٍ فسيولوجية بحتةٍ، وأعني بذلك أخذ الكفاية من الاحتياجات العضوية الأساسية التي أوردها «ماسلو» عند حديثه عن المستوى الأول من (هرم الاحتياجات الإنسانية)، وهي: النوم والطعام والشراب، والاتصال الجنسي وتنفس الهواء النقي، والإخراج الكامل للفضلات ـ أكرمكم الله ـ ولكن اعتقادي السابق تحطم فوق صخرة الملاحظة الواقعية، فقد داهمتني تلك الحالات الجميلة في أوقاتٍ أكون فيها بحاجةٍ ماسةٍ لبعض تلك الاحتياجات!

وبغض النظر عن الأسباب التي تؤدي إلى تلك النشوة الروحية الساحرة، التي أجزم أنكم جميعاً شعرتم بها ولو لمراتٍ معدودةٍ في حياتكم.. بغض النظر عن ذلك أقول: إذا شعر الإنسان بتلك المشاعر الإبداعية العجيبة، التي تجعله مهيَّأً للانطلاق القوي والركض السريع في ساحة موهبته الوجدانية، فيجب عليه ـ في رأيي ـ التوقف عن أي عمل من أعماله الروتينية الجسدية اليومية، والتفرغ التام لمواهبه وأعماله الفنية السيكولوجية البحتة، المرتبطة بالروح والخيال. أجزم أن استغلال كثيرٍ من العظماء لتلك اللحظات التي لا تقدّر بثمن، هو السبب الرئيسي أو أحد أسباب ظهور عددٍ

كبيرٍ من الأعمال الفنية الكبيرة، التي خلدها التاريخ وحُفرت في ذاكرة الناس، سواء كانت تلك الأعمال رسوماً أو شعراً أو رواياتٍ أو معزوفاتٍ موسيقيةٍ، أو غيرها من الأعمال الشهيرة في مختلف مجالات الإبداع.

يخطر على بالي بيتُ شعرٍ فصيحٌ، وآخر شعبيٌّ عامّيٌّ، قد يساهمان في إيصال الفكرة، فالفصيح قول الإمام الشافعي:

إذا هَبَّتْ رياحُك فاغْتَنِمْها

فعُقْبَى كُلِّ خافِقَةٍ سُكُوْنُ

والثاني قول الأمير خالد الفيصل:

إلى صفالك زمانك علّ يا ظامي

اشرب قبل لا يحوس الطين صافيها

ولربط البيتين بفكرة الموضوع أقول: إذا هبّت رياح خيالاتك ومشاعرك، وارتفعت حالتك المزاجية ونشوتك الروحية، فعليك باستغلال تلك الرياح فوراً، وتوجيه الطاقة إلى الموهبة التي تحبّها وتتقنها.. تفرّغ تماماً لها وتجاهل كلَّ ما سواها من مشاغل الحياة، التي يمكن إنجازها في أوقاتٍ أخرى، وثق تماماً أنك ستقدم شيئاً ثميناً إذا أحسنت استغلال هبوب تلك الرياح الروحية المزاجية. اشرب من نبع ذلك الماء الإبداعي النقي قبل أن يكدره مكدِّرٌ معلومٌ أو مجهول!. وهناك نقطةٌ أخرى غريبةٌ، وهي أنني لاحظت أن تلك اللحظات الثمينة تمرُّ بي بشكل أوضح، عندما تضيق حلقات الحياة

عليَّ، فتكون تلك اللحظات باباً للفرج الكامن في التعبير القوي، والبوح بمكنونات النفس والعقل.

إن التعبير الجيد عن مشاعرك وما يدور في خلجات نفسك، عن طريق موهبةٍ معينةٍ تتقنها، واستغلال الأوقات والظروف التي تساعدك في إجادة ذلك التعبير.. إن ذلك من أنجع أدوية التعب النفسي، الذي ينتابنا بين الفينة والأخرى، في هذا العصر الذي زادت فيه ضغوط الحياة وصعوباتها.

وأزيدكم من الشعر بيتاً، فقد تأملتُ في سيرِ كثيرٍ من مشاهير المبدعين، وعلى رأسهم الكاسرون للمألوف، والمتصادمون معه والثائرون عليه، والقالبون للطاولة في وجوه أحبابه الساكنين به والمطمئنين له، فوجدتُ في حياة أغلبهم ألماً معيناً أو معاناةً ما، سبقتْ ما جاء به من الأمور التي توصف بأنها عظيمةٌ باهرةٌ أو خارقةٌ للعادة، مما ينتجه الناس في هذه الحياة. ولذلك أرى أن استحكام حلقات الضيق من أمرٍ ما، قد يكون أحد أهم أسباب حركة تلك النواميس الخفية المجهولة، التي تعمل على تحويل الطاقة الروحية الملازمة لردود أفعال الضجِرين الضائقين ذرعاً من أمورٍ أزعجتهم، إلى إبداعاتٍ عظيمةٍ يخلّدها التاريخ.

يَشْتُمُ من يعالجه ويكسوه ويُعَلّمه!

إن من أعقد الازدواجيات التي لا يكاد ينقضي عجبي منها، انتقاصَ المتشدد في دينه ـ أحياناً ـ مَن لا يتبعون دينه، وسبّهم واحتقارهم وتكفيرهم وتجهيلهم وتسفيههم، ونعتهم بأبشع نعوت الهوان والضلال، وأشنع صفات النقص والإذلال، وهو في صحته وقوّته وعافيته؛ ثم السفر إلى بلدانهم واللجوء إليهم والتضرّع بين أيدي أطبائهم في مستشفياتهم، طلباً للعلاج والنجاة من الموت عند المرض أو الشيخوخة في آخر حياته.

إنني أكتب لكم الآن هذه الأسطر عبر برنامج «وورد»، وهو من إنتاج شركة مايكروسوفت الأمريكية، وأستخدم جهاز كمبيوتر من إنتاج «توشيبا» اليابانية، وسوف أرسل الكتاب إلى الناشر عبر إيميل شركة «ياهو» الأمريكية أيضاً، وسوف يطبعه عبر مطابعه، التي تستخدم نظام طباعةٍ فيه ورقٌ وحبرٌ وأجهزةٌ وغير ذلك من الوسائل التي اخترعتها أو اكتشفتها وطورتها مجموعاتٌ من عظمائهم، الذين

ضحوا بكل ما يملكون من وقتٍ وجهدٍ، وقدموا أعمارهم هبةً للإنسانية ونهضتها المحققة لراحة الإنسان وسعادته.

وسوف يصلكم الكتاب، فتقرأونه وأنتم جلوسٌ تحت وسائل الإضاءة وأجهزة التكييف والراحة، وغيرها مما يحيط بكم من اختراعات وإبداعات غير المسلمين.

وقس على هذا المثال كلَّ ما يحيط بنا تقريباً من الأمور والأشياء التي نستخدمها ونستمتع بها ونستفيد منها يومياً، ابتداءً بسياراتنا وطائراتنا وقطاراتنا وسفننا، ومروراً بآلاف الأجهزة والوسائل والمخترعات والاكتشافات التي تملأ منازلنا، وعلى رأسها المبتكرات الطبية والغذائية والأدوية، وما يدخل في حكمها من أسباب العلاج وأدوات البقاء في الحياة، وانتهاءً بأقمشة زينا الوطني المتمثل في ثيابنا وعمائمنا وعباءات نسائنا، فغالبها يصنع في دولهم وبأيديهم الكريمة، لا حرمنا الله منها. فلماذا ينتقص بعضنا دول الغرب وشعوبها، وغيرهم من شعوب الدول الأخرى، التي تدين بغير دين الإسلام، كبعض شعوب شرق آسيا المبدعة مثلاً؟!

لقد ذهلتُ قبل أسابيع قليلةٍ، وأنا أتابع انتقاص وازدراء وتهجّم بعض طلابنا المبتعثين المتزمتين، على شعوب الدول التي يدرسون في جامعاتها؛ فقد قرأتُ في أحد المواقع الخاصة بالمبتعثين كلاماً سوقياً ساخراً في هذا الشأن، لا يليق بأي ضيف احترمه مضيفوه وأكرموه، فكيف يصدر من طلاب العلم؟!

جلس دكتورٌ متطرفٌ إلى جواري في أحد المجالس يوماً، وكان الحديث عن إبداعات الغرب وصناعات غير المسلمين من اليابانيين وغيرهم، فانهال عليهم بالسبِّ مسهباً في ازدرائهم وتضخيم سلبياتهم، وتجاهل إيجابياتهم ونجاحاتهم، والحكم عليهم بالطرد من جنة الله، والخلود في قعر جهنم؛ وكأنه رب العالمين الذي بيده مفاتيح الجنة والنار.. وبعدها بدقائق انتقلنا للحديث عن موضوع الشهادات والجامعات، فعاد صاحبنا للثرثرة، بعد أن عدّل (تشخيصة شماغه) الذي صنعه له الإنجليز؛ وقال مفتخراً بنفسه: أنا حاصلٌ على شهادة البكالوريوس من أعرق جامعات أوروبا، وحاصلٌ على شهادتي الماجستير والدكتوراه من الجامعة الأمريكية الفلانية، ثم خرجنا من مجلسنا، فركب سيارته اليابانية وانصرف!!

سؤالان وجوابان:

1 ـ ماذا قدمنا لهم وللبشرية حتى نتعالى عليهم؟

الجواب: لا شيء.

2 ـ ماذا قدموا لنا؟ .. قدّموا كلَّ شيء.

فلنسمح لهم ببناء معابدهم

إن إقامة الإنسان لشعائره الدينية بكل حريةٍ حقٌّ مشروعٌ له في كلِّ بقاع الأرض، ويجب على المسلم احترام عقائد الآخرين ودور عباداتهم؛ ولذلك منع عمر بن الخطاب ـ عند فتح القدس ـ المسلمين من الصلاة في (كنيسة المهد) حتى لا تتحوّل الكنيسة إلى مسجد.

يقيم في بلادنا ويزورها باستمرار كثيرٌ من غير المسلمين، سواء أتباع الديانات السماوية أو غيرهم من معتنقي الملل الأخرى، ومن حقِّ هؤلاء أن يتعبدوا بالشكل الذي اقتنعوا به وارتضوه لأنفسهم.

أقول هذا الكلام بعد أن تابعتُ ردودَ الأفعال الدولية القوية حيال الفتوى الشهيرة التي أصدرها سماحة المفتي الشيخ عبد العزيز آل الشيخ، مطالباً فيها بهدم كل الكنائس الموجودة في الجزيرة العربية، حيث انتقد أساقفةٌ كاثوليك في ألمانيا والنمسا وغيرها من دول العالم تلك الفتوى، التي إعتبروها نكراناً غير مقبولٍ لحقوق ملايين العمال الأجانب في منطقة الخليج.

فقد ذكرتْ مواقعُ الكترونيةٌ متعددةٌ أن المفتي ـ سدده الله ـ أصدر تلك الفتوى رداً على نائبٍ كويتي تساءل عن إمكانية حظر بناء الكنائس في بلاده.

لقد ذكرت التقارير الإعلامية العربية أن الشيخ قال: «إنه ينبغي حظر بناء أيّة كنائس جديدةٍ وهدم الكنائس الحالية».

حدّثني أحد الأصدقاء المسيحيين عن صعوبة بل استحالة إظهار شعائرهم في بلادنا، وأسهب ـ متألماً ـ في شرح معاناته لي، وحين حاولت تبرير موقفنا، وامتصاص غضبه، ومحاولة تلطيف الموقف، أفحمني بردٍ سليم. قال لي: إنكم لا تكتفون بمنعنا من ممارسة شعائرنا الخاصة، بل تتجاوزون ذلك إلى إجبارنا على التقيّد التام بخصوصياتكم الدينية والاجتماعية!!

نعم، ليتنا اكتفينا بمنعهم من إظهار شعائرهم وممارسة عباداتهم فقط، فقد وصل الحال بكثيرٍ من المتشددين في بلادنا إلى إلزام غير المسلمين بتعاليم الشريعة الإسلامية رغم أنوفهم، وإجبارهم على الانصياع لعاداتنا وتقاليدنا الاجتماعية أيضاً بالقوة والإكراه، وإذا ناقشهم أحدٌ في ذلك احتجوا بقولهم القديم المكرّر (يجب عليهم احترام ديننا وعادات وتقاليد مجتمعنا)، فهل يرضى هؤلاء أن تُلزم الدولُ الكافرة المسلمين القادمين إليها للسياحة أو العلاج أو التجارة أو غير ذلك بتعاليمها الدينية وأعرافها المجتمعية؟!

لا أعتقد أن معتقداتنا ضعيفةٌ إلى هذه الدرجة التي تجعلنا نخشى من تأثير السماح لغيرنا بممارسة شعائرهم الدينية عليها!!

ماذا سيضرنا لو سمحنا للأصدقاء المسيحيين بإقامة كنيسةٍ أو كنيستين مثلاً في كل مدينة من مدن المملكة الكبرى؟. وماذا سيضرنا لو سمحنا لغيرهم من أتباع الأديان الأخرى بإقامة معابد (محدودة العدد) في بعض مدننا. هذا حقهم المشروع فلماذا نحرمهم منه؟.

إن ما يمارسه بعضُ أعضاء هيئات المنكر والمعروف وأمثالهم من زاعمي الاحتساب، مخجلٌ ومؤلمٌ ويستوجب البحثَ والتحقيق الدقيقين؛ فقد وصل رفض الآخر والتصادم معه إلى درجةٍ عاليةٍ لا تتناسب إطلاقاً مع روح هذا العصر الذي نعيشه، ولا مع تعاليم الدين الإسلامي الحنيف السمح.

لن أجد خاتمةً لهذا الموضوع أجمل من تغريدتين رائعتين وجههما الأستاذان الفاضلان عابد خزندار وتركي الحمد، لسماحة مفتي المملكة عبر موقع «تويتر» إبّان تلك الفتوى، حيث يقول الدكتور تركي: «الفتوى الأخيرة لسماحة المفتي بهدم الكنائس في جزيرة العرب: ماذا لو عاملونا بالمثل فهدموا مساجدنا في أميركا وأوروبا؟ هل نلومهم؟»

أما الأستاذ عابد فيقول:

«مفتي السعودية يدعو إلى هدم الكنائس في جزيرة العرب، فهل يرضى بأن يهدم الأمريكان والأوربيون مساجدنا؟»

نتمنى أن نجد لهذا السؤال العميق الذي طرحه الأستاذان الكبيران جواباً!!

نعم للتعايش.. لا للعصبيات!

إنكم لو رأيتم ما رأيته في ذلك المجلس الثقافي الجميل، الذي جمعني بثلةٍ من المتعايشين ـ ذكوراً وإناثاً ـ رغم اختلاف مشاربهم في أحد مقاهي الدول العربية قبل سنةٍ تقريباً.. إنكم لو رأيتم ذلك لتفجرت في أعماقكم ـ كما تفجرت في أعماقي ـ قنابل الأسئلة التي لا تنتهي حول أسباب عدم وجود مثل هذا التعايش الرائع في مجتمعنا.

يا الله.. ما أشسع الفرق وما أوسع البوْن بين مجتمعنا ومجتمعهم. يا الله؛ كم كانت أحاديثهم ماتعةً ورائعةً وحضاريةً وراقيةً بكل ما تحمله هذه الكلمات من دلائل. كان العدد كبيراً، والأطياف متعددةً، والمذاهب مختلفةً، والتوجهات متناقضةً؛ ففيهم السني والشيعي والصوفي والدرزي، وبينهم بعض المسيحيين الذين يدينون وينتمون إلى عددٍ من الكنائس والطوائف المسيحية المختلفة عن بعضها في كثيرٍ من المعتقدات، ومنهم الربوبي واللاأدري، وغيرهم من أصحاب المذاهب والمناهج الكثيرة

المنتشرة في تلك الدولة؛ بالإضافة إلى اختلافهم الكبير عن بعضهم في الأعراق والأنساب والأشكال والألوان والأعمار والمناطق والمدن!

لم أسمع من أحدهم ما أسمعه وأقرأه باستمرار في مجتمعنا من الألفاظ الجارحة، أو البذيئة أو المنحطة، أو النابية أو المهينة، التي تصدر من بعضنا ضدّ من يختلف معهم في رأيٍ أو آراء أو منهجٍ أو توجهٍ أو مذهبٍ أو غير ذلك.. لم أسمع شيئاً من هذا القبيل هناك، رغم أن الحوارات كانت طويلةً ومتشعبةً وحامية الوطيس ومتعددة المواضيع والمحاور.

كان الجميع يتفقون على شيءٍ واحدٍ هو: «الدين لله والحياة للجميع».

يحترمون بعضهم جداً، ولا يشتمون ولا يسيئون ولا يتجاوزون ولا يحرضون، ولا يهددون مهما بلغت حدّة النقاش.. متى يصل الناس في بلادنا إلى مثل هذا التعايش الحضاري الذي يدعو للبهجة والفخر، ويحقق الحب والسلام والوئام بين البشر؟

ثمة إشكالٌ عويصٌ في موضوع التعايش في مجتمعنا، رغم أن عدد سكان المملكة تضاعف كثيراً في السنوات الأخيرة، وهذا ما يوجب على جميع العقلاء من مختلف التيارات والأطياف الإيمان بأهمية تحقيق التعايش؛ لأنه هو السبيل الوحيد القويم الأمثل، لبناء الوطن وتقدمه وازدهاره ونهضته بالشكل المنشود وبالصورة المرجوّة، التي نطمح لها جميعاً في مختلف الميادين وعلى الأصعدة كافة.. يجب أن تهتم جميع مؤسسات الدولة بزيادة

مستوى الوعي بأهمية هذا الموضوع بين أفراد المجتمع، بل يجب أن يهتم كلُّ فردٍ منا بهذه القضية، لعلنا نلحق ولو بآخر مقصورةٍ في قطار التقدم والحضارة والإنتاج والإبداع والرقي.

لا يمكن لمجتمعنا أن يصل إلى ما وصلت إليه تلك المجتمعات الرائعة، إلا إذا مزقنا ثياب العصبيات بمختلف أشكالها البشعة وألوانها القبيحة، ولبسنا بدلاً عنها ثياب الحب والإخاء والتعايش والاحترام وقبول الآخر والانفتاح عليه. مزقوا ـ بكل ما أوتيتم من قوة ـ ثياب جميع العصبيات والتعصبات التي أتعبت أعصابنا، وفرقتنا ونشرت الاحتقان والكراهية والحقد والبغضاء بيننا، وألقت بمجتمعنا في ذيل قائمة المجتمعات للأسف الشديد.. مزقوا ثياب العصبية القبلية والمناطقية والفكرية والمذهبية والرياضية والعرقية والجنسية واللهجوية والطبقية... وغيرها من العصبيات.

في بلادنا شيعةٌ وسنةٌ وإسماعيليةٌ وصوفيةٌ وإباضيةٌ وأشاعرةٌ وزيديةٌ، وغيرهم من المواطنين والمقيمين الذين ينتمون إلى عددٍ من المذاهب الإسلامية، التي تختلف عن بعضها في كثيرٍ من القناعات الروحانية العقائدية.. وفي بلادنا اليوم أيضاً مقيمون يدينون بأديان ومللٍ ونحلٍ كثيرةٍ أخرى لا حصر لها.. بالإضافة إلى تعدد المذاهب الفقهية للمسلمين من سكان المملكة، ففينا الحنبلي والشافعي والمالكي والحنفي والظاهري، وغيرهم من أتباع المذاهب الفقهية المتباينة.

إذن، وبناءً على الفقرة السابقة: هل يوجد من يستحق اللوم والرفض والتنبيه والنصح والتحذير والغضب والنفور والاشمئزاز في هذا العصر، أكثر من إنسانٍ ما زال يصرُّ على التمسك بمفاهيمه الرجعية المنغلقة البالية، التي تحثه على الإساءة إلى غيره، ونبذ المختلفين معه في القناعات، أو المختلفين عنه في النسب أو المنطقة أو المذهب أو الفكر أو اللون أو المستوى المادي أو غير ذلك من الاختلافات؟!

أمطري يا سحائب الحضارة والرقي والتعايش والإنسانية على قلبه الأسود، فقد طال جفاف أحاسيسه ومشاعره.. أمطري لعل أزهار تلك المفاهيم الجميلة تنبت في فؤاده، فيقتنع أن الاختلاف مع الآخرين لا يستلزم بالضرورة كرههم ومعاداتهم، وإعلان الحرب الضروس عليهم.. أمطري لعله يفهم أن الواثق من نفسه وفكره ومنهجه يحترمُ الصوت الآخر ولا يخشى منه أبداً.. أمطري حتى يقتنع أن الاختلاف بين الناس في الآراء ووجهات النظر هو سنة الحياة، وأن من حق كلِّ إنسانٍ أن يعيش بالطريقة التي يحبها ويختارها ويقتنع بها دون قيودٍ أو شروطٍ، إلا إذا أساء إلى غيره بأي طريقةٍ، فهنا ـ وهنا فقط ـ يجب ردعه بقوة القانون وحده، لا بأيّة قوةٍ أخرى. قلتها البارحة في مجلسٍ ثقافيٍّ، وسأكررها في كل مكانٍ وبأعلى صوتٍ: العصبيات ـ بكل أنواعها ـ هي سلاح الدمار الشامل لأي مجتمعٍ تنتشر فيه.. هي السلاح الذي يفتك بكل أحلام الوطن وطموحات المستنيرين من أبنائه.. لا يمكن لمجتمعٍ أن

ينافس في سباقات الحضارة والمجد الإنسانيين إلا إذا استطاع أفراده كسر بواتق الانغلاق والتطرف والإقصاء والوصاية.

وختاماً: قولوا آمين.. قولوها من أعماقكم بعد هذا الدعاء: يا رب خلِّصنا من جميع العصبيات التي استفحلت بيننا وانتشرت في مجتمعنا انتشار النار في الهشيم.. يا ربِّ اجعلنا جميعاً إخواناً في الإنسانية، يحب بعضنا بعضاً، مهما اختلفنا في المذهب أو الفكر أو العرق أو المنطقة أو أي شيء.

لبس العباءات النسائية بدعة!

من الأهمية بمكان أن تستمر الأصوات الرافضة للوصاية بمختلف صورها المقيتة، التي تفوح روائحها النتنة من أقوال وأفعال المدمنين عليها والمرضى المصابين بداء عشقها، الذين ينتشرون في كلِّ مكانٍ من مجتمعنا للأسف الشديد.

ومن أسوأ صورها ـ أي الوصاية ـ تدخّلُ بعض المتشددين في ملابس الناس، وإصرارهم على إلزام الإنسان بلبس ما يختارونه له، ومنعه من لبس ما يختاره لنفسه!

ومن أمثلة ذلك مهاجمة فرق هيئات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بين الحين والآخر المحلات والأسواق التجارية، بحثاً عن العباءات النسائية الملونة والمطرزة والمزخرفة، ويصرُّ كثيرٌ من المتفيقهين الذين ناقشتهم في هذا الموضوع على تأييد الهيئة في هذا العمل، بحجة أن اللون الأسود الخالي من الزينة والتلوين والتطريز، هو اللون الوحيد الذي يجب أن تكون عليه عباءة المرأة المسلمة!

بحثت في هذا الموضوع فذهلتُ من كثرة الفتاوى التي صدرت من عددٍ من الوعاظ والدعاة، الذين يحرّمون بيع ولبس تلك العباءات.

تأملتُ في نصوصنا الشرعية، ونقبت فيها بدقةٍ، فلم أجد نصاً واحداً يلزم المرأة المسلمة بلبس هذه العباءة السوداء، بل لم أجد دليلاً واحداً صريحاً يلزمها بلبس العباءة أصلاً؛ بهذه الطريقة المعروفة اليوم في المملكة وغيرها من الدول الإسلامية الأخرى.

ثم تعمقت في الآية التي يستدل بها من يختلف معي في هذا الموضوع، وهي قوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾، فوجدت أن معنى الجلباب في لغة العرب هو القميص، أو الثوب الواسع الطويل المشتمل على الجسد كله.

كلُّ ما جاء في الإسلام هو الأمر بالستر فقط، فإذا لبست المرأة لباساً ساتراً وغطت شعرها، فقد حصل المراد وتم على أكمل وجه؛ ويحق للمقتنعة بالقول الذي يرى تغطية الوجه تغطية وجهها، رغم أني أراه قولاً مرجوحاً لا يقوم على أدلةٍ صريحةٍ صحيحةٍ لا من النقل ولا من العقل.

أما إلزام النساء بلبس هذه العباءة السوداء بكيفيةٍ معينةٍ كما هو الحال في السعودية اليوم، فلا أدري لماذا يصر عليه الكثير من المهووسين بالوصاية، بل لا أدري لماذا يستمر السماح لهم بهذا التدخل السافر في خصوصيات الناس؟!

ما شأنهم بالمرأة التي تلبس لباساً مستتراً محتشماً إذا لم تلبس عباءة، أو لبستها بطريقة تقنعها وتخالف قناعاتهم؟!

إن إجبارَ المصانع والباعة والنساء على لون معينٍ وشكلٍ خاصٍ من العباءات، أو بطريقة معينة في لبسها أمرٌ عجيبٌ لا يقوم على دليلٍ نقليٍّ صحيحٍ صريحٍ، ولا على حجةٍ عقليةٍ مقبولةٍ، بل هو في نظري بدعةٌ جديدةٌ محدثةٌ لم تكن موجودةً في عصر النبي الكريم وصحابته الأبرار، فلم نسمع أن نساء المسلمين في عصر صدر الإسلام كن يلبسن العباءات السوداء، التي توضع على الرأس بهذه الطريقة المعروفة اليوم في بلادنا.

إلبسي ما تريدين والبس ما تريد؛ ولكن لا تتدخل في ملابس الآخرين، بل لا تتدخل في أيِّ شيءٍ من أمورهم الخاصة بهم.

أخبرني أحد العاملين في الأسواق أن الهيئة ترسل إلى المحلات المختصة ببيع الملابس النسائية تعليماتٍ متكررةً تنص على منع بيع عباءاتٍ معينةٍ، وأنها أي الهيئة تقوم بتحريز ومصادرة العباءات المخالفة للمواصفات التي تريد من المحلات؛ بالإضافة إلى أخذ التعهدات على العاملين فيها أو المسؤولين عنها بعدم تفصيلها أو بيعها، ويتم منحهم مهلةً معينةً للتقيد بذلك، وتكرر الهيئة زيارة تلك المحلات، والتأكد من مدى التزامها بالتعليمات السابقة بشكل متتابعٍ ومزعجٍ للتجار والمتسوقين على حدٍ سواء.

وأحب أن أشير في الختام إلى أن حديثي عن ممارسة الهيئة الوصاية على العباءات النسائية، لا يعني أنها لا تمارس الوصاية

على غيرها من الملابس، فقد شاهدتُ بأم عيني، وسمعت كثيراً عن تدخل بعض أعضاء الهيئات في ملابس الرجال أيضاً، بل ثبت لدي أنهم يأخذون التعهدات على الشباب الذين يلبسون ما لا يعجبهم، بل يقتادون بعضهم في كثيرٍ من الأحيان إلى مراكز الهيئة والشرطة لمحاسبتهم على هذه الملابس.

إن ما تقوم به الهيئة في هذا الموضوع وغيره من الموضوعات المشابهة وصايةٌ متكلفةٌ مرفوضةٌ، فلكل رجلٍ الحق في لبس ما يشاء، ولكل امرأةٍ الحق في لبس ما تشاء، ولكل أبٍ أو أمٍّ اختيار الألوان والأشكال التي يريدونها لأبنائهم الصغار، وليس من حق أحدٍ الإنكار على أيّة امرأةٍ مسلمةٍ أو غير مسلمةٍ في لباسها، ما لم يكن كاشفاً لما لا يجوز كشفه بإجماع علماء الإسلام، لا برأي فئةٍ منهم.

وقبل أن يهاجمني أحدٌ أقول: اكتبوا في «جوجل» أو في غيره من محركات البحث (الهيئة والعباءات النسائية)، واقرأوا النتائج، واحكموا عليها بعقلٍ وعدلٍ وإنصافٍ.

الفنون وسقف الحرية

عندما يتجه العشرات من الأدباء والمفكرين وغيرهم من الكتاب السعوديين للخارج سنوياً؛ لنشر كتبهم ودواوينهم التي لا يُسمح بطباعتها داخل أوطانهم؛ لأنها تحمل في داخلها أفكاراً تخالف توجه بعض محبي فرض قناعاتهم على الآخرين.

وعندما نشاهد أجمل وأشهر المسلسلات السعودية الرمضانية وغيرها من الأعمال على غير قنواتنا التلفزيونية؛ لأن قيود الرقابة ـ المتكلفة والمبالغ فيها ـ حالت في سنواتٍ ماضيةٍ دون البث الحُرِّ لما يريد أصحاب تلك الأعمال بثه دون قيود.

وعندما يتجه رسامو الكاريكاتير السعوديون لمواقع الانترنت، أو لصحفٍ خارجيةٍ، لنشر بعض رسوماتهم التي منعت من النشر في صحافتنا؛ لأنها تحمل دلالاتٍ معينةً لا تستطيع المرور أمام مقص الرقيب.

وعندما يُمنع الفنانون الأجانب من تقديم عروضهم الإبداعية

في بلادنا، كما حدث ـ مثلاً ـ مع عازف الجيتار الإسباني (كارلوس بينانا)، والموسيقار العربي العالمي (نصير شمة)، حيث تم إلغاء حفلهما في المنطقة الشرقية، خلال احتفالات عيد الفطر قبل الماضي، بعد أن تم الإعلان رسمياً عن الموعد المحدد في وسائل إعلامنا المحلية؛ بسبب تدخل بعض المحتسبين المقتنعين بوجهة نظرٍ فقهيةٍ معينة.

وعندما يقف البعض حجر عثرةٍ في طريق الفن والإبداع في مهرجانٍ فنيٍّ وطنيٍّ كبيرٍ كمهرجان الجنادرية، دون مبررٍ سائغٍ أو عذرٍ سليمٍ، مستهدفين بوقوفهم السلبي كثيراً من المناشط والفعاليات التي يقوم بها في هذا المحفل أبناء الوطن وغيرهم من الضيوف، الذين يزورون هذا المهرجان في بلادنا سنوياً؛ ثم يعودون بعده إلى أوطانهم وفي جعبتهم الكثير من المشاهدات والأخبار والانطباعات، التي ينقلونها لشعوبهم عن المملكة وحضارة شعبها وتراثه وثقافته.

وعندما تُصادَر وتطمس كثيرٌ من اللوحات الجميلة والصور المختلفة في متاجرنا ومكتباتنا، بسبب خروجها عن الحدود التي وضعها من قام بمصادرتها أو تشويهها.

عندما يحدث ذلك كله وغيره الكثير، ويتكرر باستمرار في المملكة، نجد أننا أمام سؤالٍ مهمٍّ لا بد من تكراره وبصوتٍ مرتفعٍ، حتى يصل إلى جميع الجهات المسؤولة، التي يجب عليها الإصغاء له وتأمله جيداً، ثم الإجابة عنه، إذا أردنا لهذا الوطن

التقدم والنجاح، والمنافسة في جميع المجالات الفنية والثقافية والسياحية والحضارية المختلفة.. إلى متى ولماذا ولمصلحة من يبقى سقف حرية الفن والرأي والإبداع الثقافي والفكري منخفضاً في بلادنا؟.

يجب أن تُوقف جميع أشكال وأساليب الوصاية والرقابة التي يمارسها البعض على الناس في جميع المجالات عامةً، والفني الإبداعي منها خاصةً؛ لأن التعسف والعناد والمبالغة فيها وزيادة التركيز عليها، قد يضطر الكثير من الفنانين والمبدعين إلى الانفجار في الاتجاه المعاكس، وبشكلٍ مبالغٍ فيه أيضاً، كردة فعلٍ لما يُمارس ضدهم، وهذا ما يفقد المجتمع توازنه واعتداله الطبيعي، الذي ينبغي أن يعيشه كما تعيشه جميع المجتمعات السوية في العالم!

إن لكل فعلٍ ردة فعلٍ مساويةً له في القوة ومعاكسةً له في الاتجاه، كما تقول تلك النظرية الفيزيائية الشهيرة، التي قد نفهم عند تطبيق مفهومها على واقعنا الفكري والمجتمعي سبب الكثير من الظواهر الغريبة التي نشاهدها تنمو وتتصاعد وتنتشر بيننا انتشار النار في الهشيم.

أليس من الجميل أن تتعايش جميع الأطياف الفكرية في أجواء عليلةٍ من المحبة والالفة والفرح والسلام والوئام، وبصورةٍ تكفل لكل إنسانٍ حقه في العيش وفق قناعاته وبالطريقة التي تناسبه، دون أن يعكر بعضنا صفو حياة البعض الآخر؛ حتى وإن اختلفنا في قليلٍ أو كثيرٍ من الآراء ووجهات النظر؟!

تهويلُ أمر الموت!

الموت أشدُّ من نشرٍ بالمناشير، وقرضٍ بالمقاريض، وغلي في القدور، ورضخٍ بالصخور، وهو كغصنٍ من الشوك يُضرب به الإنسان، فلا تبقى شوكةٌ إلا دخلت في عرقٍ أو عصبٍ، ثم يُسحب الغصن فيَسحب معه كلَّ عرقٍ أو عصبةٍ في الجسد، فيشعر الإنسان وكأن جبال الدنيا على صدره، وكأنه يتنفس من ثقب إبرة!!

كان ذلك بعض ما جاء في أحد خطب الجمعة التي حضرتها مؤخراً، والغريب هو أن الواعظ الذي ألقى تلك الخطبة المفزعة، كان يورد تلك الأقوال وغيرها مما لا يقل إرعاباً عنها، مسبوقةً بقوله: قال فلان بن فلان وهو على فراش الموت، أو قال الإمام فلان يوصي ابنه وهو يحتضر: يا بني إعلم أن للموت كذا وكذا.. أو سئل الزاهد العابد فلان وهو يلفظ آخر أنفاسه عن سكرات الموت فقال.. أو قال بعض الناس للتقي الورع فلان وهو على فراش موته (صِفْ لنا الموت) فأجاب رحمه الله بقوله كذا وكذا. ولا أدري في الحقيقة كيف استطاع أولئك الأشخاص أن يتحدثوا

مع الناس، وأن يجيبوا عن أسئلتهم، وأن يصفوا لهم الموت بهذه الدقة العالية المخيفة، وهم في هذا الألم الرهيب، والكرب العظيم، الذي يفوق ألم النشر بالمناشير، والغلي في القدور، وحمل الجبال على الأكتاف، وتدوير قطب الأريحية على الأحداق، والتنفس من ثقوب الإبر، على حدّ وصف بعض وعاظنا!!

يحاول بعض المتنطعين من الدعاة إيصال رسالةٍ كئيبةٍ لكل إنسان، مفادها أنه لن يكون قريباً من الله أو محبوباً عنده، إلا إذا عاش خائفاً مذعوراً من الأهوال القادمة في الطريق إليه، والتي بالغ كثيرٌ من الوعاظ على مرِّ تاريخنا العربي في تهويلها وتضخيمها، بل أضافوا عليها كثيراً من الآثار المرعبة والأحاديث الضعيفة أو الموضوعة، أو ما يُعرف عند علمائهم بالإسرائيليات التي لا يثقون بها، ولا يبيحون إيرادها إلا في باب الوعظ فقط؛ بالإضافة إلى كثيرٍ من القصص المختلقة المثيرة للعجب والدهشة!

يريد هؤلاء من الإنسان أن يقضي جميع أوقاته أو غالبها خائفاً من الموت ومن عذاب القبر، ومن النفخ في الصور وما يتبعه من الأحداث التي تحصل يوم القيامة؛ وهذا بالتأكيد يتعارض مع عشرات النصوص الدينية المقدسة الصحيحة، التي أمرت الناس بالصعود إلى أرقى وأعلى الدرجات في سلالم الاستمتاع بالحياة بكل ما فيها، وعمارة الأرض بكل همّةٍ وعزيمةٍ وفرحٍ ومرحٍ وابتهاجٍ وسرورٍ وانشراح صدر.

يركزون على قصر الأمل وتثبيط الهمم، وقتل الرغبات

والطموح، ويكررون أحاديث معينةً، كقول الرسول عليه السلام: (مالي وللدنيا، إنما أنا كرجل قالٍ تحت ظل شجرةٍ ثم راح وتركها)، وكقول ابن عمر في حديث البخاري الشهير: أخذ رسول الله عليه السلام بمنكبيَّ فقال: (كن في الدنيا كأنك غريبٌ أو عابر سبيل) فكان ابن عمر يقول: (إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء). ويتجاهلون أنه لا يصحُّ النظرُ في تلك النصوص منفصلةً عن بقية نصوص الإسلام الأخرى، كآية سورة القصص (وابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا) وكقوله عليه السلام مثلاً: (إن هذا الدين يسرٌ، و لن يشادَّ هذا الدين أحدٌ إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وابشروا).

قدّمَ لي أحدهم ـ قبل أعوام ـ كتيباً وعظياً بالغ فيه مؤلفه كثيراً في التهديد والوعيد، ووصفَ الموتَ والقبر وصفاً جنونياً قادراً على نقل القارئ إلى (مستشفى الأمراض النفسية) قبل الانتهاء من قراءته؛ فأهديته في صباح اليوم التالي هذه الأبيات الرائعة لأديب المهجر الكبير إيليا أبو ماضي، لعلمي أنها الدواء الناجع له ولأمثاله، حيث يقول شاعرنا الجميل:

أيهذا الشّاكي وما بك داءٌ كيف تغدو إذا غدوت عليلا؟

إنّ شرّ الجناة في الأرض نفسٌ تتوقّى، قبل الرّحيل، الرّحيلا

وترى الشّوك في الورود، وتعمى أن ترى فوقها النّدى إكليلا

هو عبءٌ على الحياة ثقيلٌ من يظنّ الحياة عبئا ثقيلا

والذي نفسه بغير جمالٍ لا يرى في الوجود شيئاً جميلا

ليس أشقى ممّن يرى العيش مراً ويظنّ اللّذات فيه فضولا
أحكم النّاس في الحياة أناسٌ عللّوها فأحسنوا التّعليلا
فتمتّع بالصّبح ما دمت فيهِ لا تخف أن يزول حتى يزولا
وإذا ما أظلّ رأسك همّ قصّر البحث فيه كي لا يطولا

أعتقد أن موضوع تهويل أمر الموت والتخويف منه بقصد النصيحة والوعظ، أخذ حجماً أكبر من المطلوب والمعقول، وبالغ الدعاة فيه أكثر من اللازم؛ فالموت كما يظهر لي ليس إلا نهاية سهلة جميلة طبيعية لكل كائن حي.. إنها لا تختلف كثيراً عن بقية الأمور الأخرى التي تحدث للإنسان، كالولادة، والنوم، والمرض، والأكل، والتنفس، وغير ذلك من التغيّرات والاحتياجات والظواهر والمراحل الطبيعية التي يمر بها كل إنسانٍ، بل كل كائنٍ حي.

ولا أظن أنه يستحق ـ أي الموت ـ كل هذا الزخم والإرهاب والصياح والصراخ والنواح وترويع الناس عند الحديث عنه.

أنصح الجميع بقراءة رسالةٍ جميلةٍ، لإمام الظاهرية الكبير ابن حزم الأندلسي عنوانها (رسالة في ألم الموت وإبطاله) فقد رجّح فيها الإمام أنه ليس للموت أي ألمٍ إطلاقاً، وقد استدلَّ على ذلك بكثيرٍ من الحجج الحسيّة والعقليّة. وذكر فيها أن كلَّ من يراه الناس وهو يموت وهو في عقله، إذا سأله أحدٌ عَمّا يجد، فإنه يقول: لاشيء إلا الانحلال فقط.. وأشار ابن حزم في هذه الرسالة الفريدة من نوعها، إلى أن كل من يحسّ عند الموت ألماً فإنه ألمُ المرض

الذي كان فيه، كالوجع المختصِّ بمكانٍ واحدٍ، وما أشبه ذلك. . وردَّ فيها على المبالغين في وصف شدة الموت وصعوبته وأوجاعه، بل نفى كلَّ تلك المزاعم التي يوردها الوعّاظُ لتخويف الناس من الموت نفياً كاملاً قاطعاً؛ لأن القائلين بها لا يملكون أيَّ برهانٍ سليمٍ يثبت صحّة مزاعمهم.

وأنصح أيضاً بتأمل منتصف قصيدة (فلسفة الحياة) والتي أوردتُ مطلعها أعلاه؛ فقد أبدع أبو ماضي كثيراً حين قال:

أدركتْ كنهها طيورُ الرّوابي ... فمن العار أن تظلَّ جهولا
ما تراها والحقلُ ملك سواها ... تَخِذتْ فيه مسرحاً ومقيلا
تتغنّى، والصّقر قد ملك الجوّ ... عليها، والصائدون السّبيلا
تتغنّى، وقد رأتْ بعضها يؤخذ ... حيّا والبعض يقضي قتيلا
تتغنّى، وعمرها بعض عامٍ ... أفتبكي وقد تعيش طويلا؟
فهي فوق الغصون في الفجر تتلو ... سوَرَ الوجد والهوى ترتيلا
وهي طوراً على الثرى واقعاتٌ ... تلقط الحبّ أو تجرّ الذيولا
كلّما أمسك الغصونَ سكونٌ ... صفّقت في الغصون حتى تميلا
فإذا ذهَّبَ الأصيلُ الرّوابي ... وقفت فوقها تناجي الأصيلا
فأطلب اللّهو مثلما تطلب الأطيار ... عند الهجير ظلاّ ظليلا
وتعلّم حبّ الطبيعة منها ... واترك القال للورى والقيلا
فالذي يتّقي العواذل يلقى ... كلّ حينٍ في كلّ شخصٍ عذولا

إنه لمن المحال أن يجتمع الأمل في الحياة والطموح في المستقبل؛ وما ينتج عنهما من إبداعٍ ونجاحٍ وحضارةٍ ورقيٍّ ونهضةٍ اجتماعيةٍ وتقدّمٍ، مع النظرة المتشائمة التي تسعى إلى تكريس قصر الأمل واليأس والخوف والذعر، وما ينتج عنها من اكتئابٍ وعذابٍ وبكاءٍ وعويلٍ وآلامٍ نفسيةٍ لا تنتهي.

لا أدري ما هو الدافع الذي يجعلهم يبذلون أفظع الجهود في سبيل طمس ملامح جمال أرواحنا بأصباغ الذعر والترويع الدائم المستمر المتكلّف!؟. لعمري إن منهجهم هذا هو الدمار الأكيد لكل طاقات الإنسان.. إنه البصق على عزيمته وشموخه وأحلامه الطبيعية الغريزية.. إنه الهبوط بإراداته وقدراته وقوّاته إلى أسفل سافلين.. لا يمكن للأرواح المصلوبة على جدران التخويف الكاذب، والمُداسة بأقدام الوهم والخرافة، أن تحلّق في سماء المجد الإنساني العظيم أبداً.

لقد حطّموها بأحجار الوعظ الزائد عن الحد، فأصبحت عاجزةً عن منافسة الأنفس الطبيعية السويّة، التي تعيش الحياة بكل ما فيها من جمالٍ وبهاءٍ وتفاؤل وأملٍ وسَعْد. إن شخصياتنا المنهكة بتلك الاسطوانات الإرهابية المشروخة ضعيفةٌ مهزومةٌ معاقةٌ، لا تستطيع النظر إلى هذا الوجود ووسائل وعناصر إبداع الإنسان فيه، وحتى لو استطاعت النظر، فإن نظرها لن يكون ثاقباً ولا دقيقاً أبداً.. كيف للعين الرمْداء أن تنظر بوضوح!؟

إنه لمن المزعج السائد ـ للأسف الشديد ـ أن يقضي أحدُهم

على طموح إنسان يتحدث عن آماله وأحلامه مسهباً في شرحها، مزهواً بها، مخططاً لها بكل جديةٍ وعزيمةٍ وإصرارٍ. إنه لمن المزعج أن يقضي على كل ذلك بكلماتٍ وعظيةٍ موغلةٍ في الإرهاب والتحذير والتخدير والوعيد الشديد البعيد عن الأسلوب التوعويِّ الصحيح، أو بإهدائه كتاباً دينياً أو شريطاً وعظياً يفيض بتلك المثبطات السوداوية المنفرة من الحياة، والمتعارضة مع الدين الحنيف، الذي تفوح من نصوصه روائح الأمل والتفاؤل والجمال الزكيّة. نعم، إنّ كثيراً من نصوص الإسلام حثَّتْ على العمل والحماس والاجتهاد والإنجاز والنجاح والبناء في مختلف المجالات والأصعدة.

أيها الوعاظ المتشددون: ألا ترون ما لدينا من الهموم والضغوط والمنغّصات الدنيوية اليومية؟ ألا تكفي وتغني عن المبالغة في الحديث عن الموت وما بعده من الغيبيات بهذه الأساليب المدمرة المقلقة المخالفة لنهج الإسلام الصحيح.

أيها الناس: اتركوا تلك «النصائح» البعيدة عن جوهر النصح الحقيقي المثمر النافع، ولا تصغوا إلا لدعاة الحياة العظماء، ومنهم بل على رأسهم أديبنا المتفائل السالف الذكر، فقد ختم إيليا قصيدته الفاتنة تلك بقوله في آخرها:

أنتَ للأرض أولاً وأخيراً كنت مَلْكا أو كنت عبداً ذليلا
لا خلود تحت السّماء لحيّ فلماذا تراود المستحيلا
كلّ نجم إلى الأفول ولكنّ آفة النّجم أن يخاف الأفولا

غاية الورد في الرّياض ذبولٌ كن حكيماً واسبق إليه الذبولا
وإذا ما وجدت في الأرض ظلاّ فتفيّأ به إلى أن يحولا
وتوقّع، إذا السّماء اكفهرّت مطراً في السّهول يُحْيي السهولا
قل لقومٍ يستنزفون المآقي هل شفيتم مع البكاء غليلا؟
ما أتينا إلى الحياة لنشقى فأريحوا، أهلَ العقول، العقولا
كلّ من يجمع الهموم عليه أخذته الهموم أخذا وبيلا
كن هزاراً في عشّه يتغنّى ومع الكبل لا يبالي الكبولا
لا غراباً يطارد الدّود في الأرضِ وبوماً في اللّيل يبكي الطّلولا
كن غديراً يسير في الأرض رقراقاً فيسقي من جانبيه الحقولا
تستحم النّجوم فيه ويلقى كلّ شخص وكلّ شيء مثيلا
لا وعاء يقيّد الماء حتى تستحيل المياه فيه وحولا
كن مع الفجر نسمةً توسِع الأزهار شمّا وتارةً تقبيلا
لا سموماً من السّوافي اللّواتي تملأ الأرض في الظّلام عويلا
ومع اللّيل كوكباً يؤنس الغابات والنّهر والرّبى والسّهولا
لا دجىً يكره العوالم والنّاسَ فيلقي على الجميع سدولا
أيّهذا الشّاكي وما بك داءٌ كن جميلاً تر الوجود جميلا

الفساد أو الصلاح شأنٌ شخصيٌّ

يتحقق النصر الحقيقيُّ الكامل لأي شعبٍ، عندما لا يشعر ذلك الشعب بحاجته إلى أيِّ نصر. أي عندما يقتنع جميعُ أفراد المجتمع بواقعهم اقتناعاً تاماً، يبعدهم عن التفكير في خوض أيَّة معركةٍ ضدّ أي أحدٍ أو شيءٍ، لتحقيق أي نصرٍ. فهل هذا ممكن؟!

لا أعتقد أن ذلك سَهْلٌ، بل أراه أشبه بالمستحيل؛ لأننا لم نجد شعباً واحداً في أيِّ مكانٍ أو زمانٍ اتفق جميع أفراده على كلِّ ما في وطنهم، أو اقتنعوا بكل ما يسود مجتمعهم من الأفكار والرؤى والمعتقدات، والقيم الاجتماعية، والمبادئ والقواعد الأخلاقية المختلفة، وغير ذلك من الأمور السياسية والاقتصادية والثقافية والمعيشية... ولذلك نرى صراع الشرائح ـ باختلاف أنواعها ـ مستمراً في كل المجتمعات دون استثناء منذ فجر تاريخ البشرية وحتى اليوم. إن ذلك هو الأصل في مختلف الميادين. هو اللازم الذي لا يمكن الانفكاك منه ولا القضاء عليه أبداً.

دعونا نتفق إذن على استحالة اتفاق أفراد أيِّ مجتمعٍ على صحة أو خطأ كلِّ الأمور التي تحيط بهم في هذه الحياة، وعلى أن اختلاف الناس في الآراء والرؤى هو الأمر الطبيعي، الذي أثبتته كثيرٌ من كتب التاريخ والفكر والفلسفة، وقبل ذلك الكتب المقدسة، ومنها القرآن الكريم في آية سورة هود: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾، ثم دعونا ننتقل بعد ذلك إلى موضوع الفساد والصلاح الأخلاقي، الذي أعنيه وأقصده في هذا الموضوع.

فهل يمكن أن يتفق جميع البشر عامةً، أو البشر في وطنٍ معيّنٍ على منظومة أخلاقٍ واضحةٍ.. هل يمكن أن يتفق الجميع على قائمةٍ تجمع كلَّ الأخلاق والصفات الحسنة الفاضلة، وتحدّد معاييرَ وضوابط الخلق السليم، أو تعريف الصفة الجيّدة بدقة، مع ضرب أمثلةٍ جليةٍ لها لا تقبل النقاش والجدل؟، وعلى قائمةٍ أخرى تجمع وتحدّد العكس؟ وأعني بالعكس الصفات والأخلاق القبيحة المرفوضة.

إن هذا صعبٌ ومستبعدٌ جداً، بل هو ـ في ظنّي ـ المستحيل الأكبر الذي لا يمكن حصوله؛ فما يراه زيدُ إقداماً وشجاعةً قد يعتبره عمرو مخاطرةً وجنوناً وانتحاراً، وما يظنه عمرو كرماً قد يراه عبد الباسط إسرافاً وتبذيراً ساذجاً وإضاعةً للمال، وما يعتبره فلان جبناً قد يراه غيره من الناس حذراً واحتياطاً حميدين، وقسْ على ذلك كلَّ الأخلاق، بل والصفات والقدرات أيضاً، فما يتوقعه أحدنا غباءً قد يراه غيره قمة الذكاء، مردداً قول أبي تمام:

فأَتَوْا كَرِيمَ الخِيمِ مِثْلَكَ صَافِحاً
عَنْ ذِكْرِ أَحْقَادٍ مَضَتْ وضِبَابِ

لَيْسَ الغَبِيُّ بِسَيِّدٍ في قَوْمِهِ
لكنَّ سيِّد قومهِ المُتغابي

قَدْ ذَلَّ شَيْطَانُ النفَاقِ وأَخْفَتَتْ
بيضُ السُّيوفِ زئيرَ أُسدِ الغابِ

والشاهد في البيت الثاني، الذي أخذه أبو تمام من قول أبي العارم الطائي:

غبيُّ العي، أو فهمٌ تغابى
عن الشذان والفكر القواصي

ليس شرطاً أن تكون نظرتك أنت للصفات والقيم والمبادئ والخلال والطباع، وغيرها من العادات والتقاليد والسلوكيات صحيحةً.. ليس شرطاً أن تكون مرجعيتك الأخلاقية سليمةً دائماً، وليس شرطاً أن يكون الفساد أو النقص هو ما تظنه أنت عزيزي القارئ فساداً أو نقصاً؛ لأن غيرك قد يراه صلاحاً وكمالاً، ببراهين وحججٍ أخرى، تختلف عن حججك وأدلتك أنت؛ والعكس صحيح.

لاحظوا أنني اخترت عدداً من أبرز الأخلاق والصفات وأكثرها تداولاً، ولا شك أن اختلاف الناس في غيرها من السمات والسلوكيات الأقلّ شهرةً وبروزاً ستكون أكبر من باب أولى.

وحتى لو سلمنا جدلاً بإمكانية اتفاق الناس على الأخلاق والصفات الحميدة والذميمة، فسندخل في إشكاليةٍ أخرى أكبر وأصعب، وهي تعريف ذلك الخلق أو السلوك النبيل أو الذميم بعد الاتفاق عليه. سندخل في صراعٍ آخر حول مفهومه وآلية إسقاطه بعد ذلك على واقع الحياة الخاصة بالأفراد.

إنها أمورٌ شائكةٌ معقدةٌ.. إنه لمِن الجلي الظاهر لمَن يتأمل أقوال الفلاسفة والحكماء والأنبياء والعظماء والشعراء والمفكرين وجود تباينٍ واسعٍ بينهم في ذلك.

ومن الطريف في هذا أنك ستذهل، بل ربما تضحك بشكل هستيري حين تقرأ في بعض كتب الفلسفة المتوارية عن أنظار العامة، ما قد ينسف بالحجج العقلية الدامغة عدداً من أسسك الأخلاقية، ككتب الفلسفة القورينائية مثلاً، أو كتب عقلنة الأخلاق، أو بعض أقوال ميكافيلي المقنعة، أو مذهب أبيقور اليوناني وغيره من فلاسفة الإنجليز، الذين نادوا بمذهب اللذة والمنفعة، كجيرمي بنتام أو جون لوك أو الفيلسوف الليبرالي التجريبي الجميل جون ستيوارت ميل القائل: (إن البشر جميعاً لو اجتمعوا على رأيٍ، وخالفهم في هذا الرأي فردٌ واحدٌ، لما كان لهم أن يسكتوه، بنفس القدر الذي لا يجوز لهذا الفرد إسكاتهم حتى لو كانت له القوة والسلطة)، والقائل أيضاً: (إننا إذا أسكتنا صوتاً فربما نكون قد أسكتنا الحقيقة، وإن الرأي الخاطئ ربما يحمل في جوانحهِ بذور الحقيقة الكامنة، وإن الرأي المجمع عليه لا يمكن

قبوله على أسسٍ عقليةٍ إلا إذا دخل واقع التجربة والتمحيص، وإن هذا الرأي ما لم يواجه تحدياً من وقتٍ لآخر، فإنه سيفقد أهميته وتأثيره).

ولا يمكن أن نُغفل في هذا السياق الكتبَ التي تناولت آراء الفلاسفة في الخير والشر، وأيهما هو الأصل في الإنسان؛ بالإضافة إلى كثيرٍ من الكتب الفكرية الأخرى المهمشة في مجتمعنا إن صحَّ الوصف، ومنها كتاب أرسطو الشهير (الأخلاق) الذي كتبه لابنه نيقوماخوس، حيث إنه كتابٌ يحتاج إلى قراءة عميقةٍ مستفيضةٍ متأنيةٍ للتمتع بجمالياته، ومن ذلك ـ مثلاً ـ أن الفضيلة عند أرسطو هي «الأمر الوسط بين طرفي نقيض»، فالكرم ـ مثلاً ـ إذا لم يكن قليلاً ولم يكن كثيراً، فهو فاضلٌ جداً عنده.

لقد توقفتُ ملياً عند عددٍ من البراهين العقلية التي أوردها بعض عباقرة الفكر الإنساني في موضوع الأخلاق. لقد انتقص بعضهم بالأدلة العقلية والحجج المفحمة عدداً من الصفات التي ساد بين غالب الناس أنها فاضلةٌ، وأثنوا على عددٍ آخر من الأخلاق أو على منظوماتٍ أو مذاهب أخلاقيةٍ يظنها غالبنا سيئةً مقيتةً دون تأمل، فكم من الأخلاق التي برهن بعض الحكماء على قبحها وحقارتها، رغم أننا قد نضحك لو ذكرت أمامنا في سياق الذم والهجاء، وكم من الصفات والأخلاق التي يعتبرها أكثر الناس انحرافا وزيغاً أو نقصاً وضعفاً، رغم أن هناك من لا يستهان به من عظماء المنطق والحكمة من يعدها قمة الحسن والفضيلة والتمام والجمال والتميّز.

ما أريد أن أصل إليه هو أن التعايش بين الناس مهما تباينت قناعاتهم الأخلاقية أصبح ضرورةً حتميةً ملحّةً في هذا العصر، الذي زاد فيه سكان العالم، وانفتحت فيه أبواب المعرفة انفتاحاً باهراً، جعل المتلقي يقف مذهولاً أمام طوفان المعلومات والآراء المتضاربة في كلِّ شيء.

يجب أن لا يفسد الاختلاف في المرتكزات الأخلاقية والممارسات الشخصية والقناعات السلوكية وغيرها من القناعات للودِّ قضيةً بين العقلاء، وأن لا يؤدي إلى التنافر أو التصادم الشخصي بينهم كما يحدث في مجتمعنا للأسف، بل يجب أن تبقى دائرة الأخلاقيات والسلوكيات الخاصة بكل فردٍ محميةً من تطفل الفضوليين، ومحاطةً بقداسة حرية المدنية العظيمة. لأنها شؤونٌ شخصيةٌ بحتة، لا يحق لأي كائنٍ أو جهةٍ اقتحام حماها، إلا إذا تعمّد صاحبها الإساءة للآخرين بأي شكل من أشكال الإساءة، مع ضرورة التأكيد هنا على أن التدخل في حال ثبوت تلك الإساءة لا يكون إلا عن طريق من يملك الصفة القانونية الرسمية التي تخوله حق محاكمة المتجاوز وعقابه.

وبناءً على ما سبق، أريد أن أحفر في رؤوس بعض بني قومي وغيرهم من المشابهين لهم في الجهل بهذا الموضوع.. أريد أن أحفر حتى أصل إلى خلايا عقولهم؛ لأزرع فيها بذرة نبتةٍ سأنتظر نموها وثمارها مهما طال الزمن.

أريد أن أقول: اعلم يا صديقي الإنسان أنه من المستحيل أن

يتفق إنسانٌ مع إنسانٍ آخر في كلِّ شيء، مهما بلغت درجة التقارب بينهما في القناعات والتوجهات، فكيف إذا كانا بعيدين عن بعضهما قليلاً أو كثيراً في ذلك؟ لا شك أن هوّة الاختلاف بينهما في وجهات النظر ستكون أكبر وأوسع دون أدنى ريب، ومن ذلك موضوعنا هذا الذي نحن بصدده: (تعريف الخلق الفاسد أو الصالح ومقاييسه وضوابطه)!!

كنتُ أرتادُ ـ كما أسلفتُ ـ أحدَ المقاهي الجميلة في بيروت بين الفينة والأخرى، أثناء زياراتي المتتالية للبنان الفكر والثقافة، وقد أدهشني في هذا المقهى الثقافي الذي يرتاده دائماً عددٌ من كبار الأدباء والمفكرين والعلماء والمثقفين؛ أدهشني الاحترام الفائق المتبادل الذي كان يسود بين المختلفين في الآراء عند الحوار، رغم أن بعض تلك النقاشات تدور حول أمورٍ كبيرةٍ وجوهريةٍ وحسّاسةٍ، منها العقدي والسياسي والاجتماعي وغيرها. قلتُ في نفسي وأنا أجلس هناك يوماً: متى ستكون النقاشات في بلادنا بهذا الرقي؟ وماذا لو رأى هؤلاء أخلاق كثيرٍ من بني قومي عند الحوار؟!

إن ما يراه الواحد منا فساداً أو شراً أو رذيلةً أو انحرافاً أو سقوطاً أخلاقياً أو تجاوزاً سلوكياً قد لا يراه غيره كذلك، بل قد يراه غيره عكس ذلك تماماً، وما يعتبره أحدنا ـ في المقابل ـ صلاحاً وخيراً وفضيلة والتزاماً وتميزاً وكمالاً، قد يختلف معه الكثيرون فيه.

لقد كان البشرُ ومازالوا وسيبقون دائماً وأبداً يختلفون في

تعريف كلِّ شيءٍ، وفي الحكم على كل شيءٍ، وفي قبول ورفض أيِّ شيء؛ ولذلك يجب أن يدرك الجميع أن الفسادَ والصلاح شأنٌ شخصيٌّ خاصٌ بكل إنسان، ولا يحقُّ لأحدٍ من أفراد المجتمع المطالبة بأي مطلبٍ يمنع شخصاً من أيِّ أمرٍ يريده ويختاره بذريعة الفساد، أو يدفعه عنوةً نحو أمرٍ آخر بالإكراه بحجة أنه صلاحٌ أو خيرٌ، ما لم تكن أقوال ذلك الشخص أو أفعاله متجاوزةً لحياته الخاصة ومتعديةً على شؤون الآخرين بأي شكلٍ من أشكال الإساءة والضرر، فهنا ـ وهنا فقط ـ يجب أن يقول القانون وحده كلمته الفصل.

جَربوّا أن تتغيروا

أرفع درجات القلم أن يكون كالعصا التي تقرع أجراس العقل، فيستيقظ على رنينها فكر الإنسان المغيَّب النائم على سرير الخنوع، ثائراً على مؤدلِجيه وقافزاً فوق أسوار حظيرة قطيعهم.

يعتقد البعض أن الكاتب القلق من الواقع المحتج عليه سعيدٌ يتلذذ. . لا يا سادة، إنه يحترق ليخلق لهم الحياة الحرة السعيدة الجديدة بعد أن أنضجه الألم؛ ولذلك أقول لرفاقي أحياناً عندما أكون محبطاً من ردود أفعال البعض على أطروحاتنا: قمة المعاناة أن يقول إنسانٌ: ليتني خُلقت محدود العقل غبياً جداً، لكي أكون سعيداً جداً، وقادراً على الانسجام مع الأكثرية والاقتناع بقناعاتهم.

أجل، إن محدودي القدرات العقلية والأغبياء والبله سعداء في غالب الأحيان، وهم الأكثرية في كثيرٍ من المجتمعات؛ ولذلك ينسجمون مع بعضهم، ويصفقون بحرارةٍ لمن يكون أرفعهم صوتاً

أو أكثرهم عملاً في تأييد الغباء والبلاهة، أو أشدهم بطشاً بالمختلفين عنهم أو معهم.

يهاجمونك بقسوةٍ حين تحاول أن تبين لهم ـ مثلاً ـ حقيقة ذلك الواعظ الذي ملأ بغبائهم جيبه ذهباً وقصره خدماً وحشماً، بعد أن نجح في قيادتهم وتوجيههم إلى أهدافه الخاصة، بطريقةٍ لا تختلف كثيراً عن طريقة الراعي الذي يقود قطيعاً من الدواب.

يهاجمونك بقسوةٍ، ويشنون عليك غاراتٍ من الإساءة والتهديد والوعيد، إذا شعروا أن أفكارك تحاول تحريك مياههم الفكرية الراكدة الآسنة! لماذا ترفضون تحريك المياه الراكدة في أذهانكم؟ لماذا تعارضون الأفكار الجديدة؟! جربوا التفكير بطريقةٍ جديدةٍ.. جربوا أن تتغيروا.. ماهي المشكلة؟ لا مشكلة في ذلك؛ فالتحوّل الفكري هو دليل نشاط العقل وتوقده، وكل شيءٍ يتغير..

كل المفكرين والمعلمين والكتاب والمشرعين والمنظرين يتغيرون، وتتغير أفكارهم وأساليبهم وقناعاتهم بين فترةٍ وفترة؛ حتى القرآن، وهو القرآن، تغيرت مواقفه وأحكامه وأساليبه، فكيف لا تتغير عقولنا وأفكارنا؟! نعم، لقد نُسخت آياتٌ كثيرةٌ في القرآن الكريم خلال أقل من ثلاثة عقودٍ، وقد تحدث العلماء عن الحكمة من ذلك النسخ وجعلوا له عدة أسبابٍ، يهمني منها في هذا الموضوع سببان هما: مراعاة مصالح الناس، والتخفيف على المسلمين.

وبذلك تظهر لنا نعمة الله على البشر في نسخ الأحكام الثقيلة، والإتيان بأحكام أخرى أخف عليهم من جهةٍ، وأصلح لهم وأنسب من جهةٍ أخرى.

إن مرونة الإسلام ورفقه بأتباعه، وقدرته على التكيّف والتغيّر بالشكل الذي يناسبهم، ليست مقصورةً في نسخ كثيرٍ من الآيات فقط، ففي مواقف النبي (ص) وأحاديثه الكثير من ذلك أيضاً.

أليس من الجميل بعد ذلك كله أن يتعامل علماء الإسلام وباحثوه ومفكروه، وخاصةً من يتصدر للفتوى منهم، مع القضايا الحديثة بأسلوب المرونة والتخفيف على الناس والتساهل معهم، كما كان يتعامل الإسلام ونبي الإسلام عليه السلام ونصوص الإسلام مع المعاصرين للخطاب القرآني الكريم؟.

أليس من الأجمل والأفضل أيضاً أن نعيد النظر بهدوءٍ في الأحكام والفتاوى الخاصة بكثيرٍ من الأمور المعاصرة، وفي طريقة التعامل معها..

إنه لمن الضروري جداً ـ إذا أردنا لمجتمعنا النهوض ـ أن يتم الحكم على قضايانا المعاصرة بمنظورنا نحن أبناء هذا العصر، لا بمنظور أسلافنا الغابرين الذين عاشوا في قرونٍ بعيدةٍ، تختلف طبيعة الحياة فيها تماماً عن طبيعة حياتنا اليوم! وختاماً أقول لفئة من بني قومي: إن دفاع الإنسان عن آرائه بافتعال الضجيج واختلاق العجيج والصراخ والنواح، أو بالسخرية من آراء المختلفين معه وانتقاص أشخاصهم والإساءة إليهم..

إن ذلك لا يحمي آراءه التي يريد حمايتها والدفاع عنها؛ بل إن ذلك لا يزيد الآخرين إلا استهجاناً لها، ونفوراً منها، وكرهاً لأصاحبها المقتنعين بها.

العيد الذي نريد

أقولها بكل صراحةٍ: تمرُّ الأعياد ثقيلةً عليَّ في كل عامٍ لا أستطيع فيه الهربَ إلى خارج المملكة.

لا نريد عيداً نتناول في صباحه (مفاطيح اللحوم) المشبعة بكمياتٍ عاليةٍ من الكولسترول والدهون، مع كمياتٍ أخرى من الحلويات والكافيين على مِعَدٍ خاويةٍ دون مبرر سليم، ثم نلقي ببقية الطعام الذي يتجاوز غالباً أضعاف ما أكلناه في سلال المهملات.

لا نريد عيداً نضيع أيامه ولياليه في تلك التمثيليات الاجتماعية المتتالية والمزعجة ـ بكثرتها الزائدة عن الحد ـ ورتابتها، وتلون وتشكل أزياء الناس النفسية فيها، والأقنعة التي يلبسونها، والمبالغة في القبلات والسلامات التي تختلط فيها الأنفاس الناقلة للفيروسات والأمراض، مجسدين بذلك أعجب وأطرف صور النفاق الاجتماعي، والتخلف الحضاري المعاكس لروح العصر.

لا نريد عيداً تضيء فيه أنوار الزينة الشوارع، وتظلم معه قلوب

المواطنين، والمقيمين المحرومين من المظاهر الطبيعية للعيد الذي يُفترض أن يكون سعيداً!.

لا نريد عيداً ينطلق شبابنا فيه للتسابق بسياراتهم في الشوارع، والتجمع في مقاهي الشيشة وغيرها، لغياب البديل المناسب من جهةٍ؛ ولأنهم يُمنعون من الدخول إلى غالب الفعاليات بحجة أنها للعائلات، رغم أنه يسمح كما شاهدت بعيني للشباب العزاب (غير السعوديين) بالدخول وبكل سهولةٍ، ورغم أنه لا يوجد مبررٌ سليمٌ للفصل بين الجنسين أصلاً بهذه الطريقة المرعبة التي لا توجد إلا في بلادنا فقط، والتي كانت وما زالت، وإن تظل عائقاً عالياً وشائكاً من عوائق التنمية والتطور والتقدم الحضاري في مختلف المجالات.

نريد أن نحتفل بعيدنا كما تحتفل جميع الشعوب بعيد رأس السنة الميلادية مثلاً، أو بعيد الحب الذي تُصادر فيه الورود الحمراء من أسواقنا!، ونريد في أيام العيد (كرنفالاً عظيماً) يليق بهذا الوطن، وينافس أشهر الاحتفالات العالمية، ويقصده السياح من كل مكانٍ؛ لنحتفل فيه كما يحتفل البريطانيون مثلاً في كرنفال «نوتينغ هيل»، أو البرازيليون في كرنفال «ريو دي جانيرو»، أو الإيطاليون في كرنفال «البندقية»، أو السويسريون في كرنفال «جنيف» الشهير بجماله وتنظيمه الرائع، أو الألمان في كرنفال «كولن»، أو كما يحتفل الأمريكيون والأسبان والهنود واليابانيون والاستراليون وغيرهم في مناسباتهم، أو على الأقل كما يحتفل الإماراتيون واللبنانيون وبقية الأشقاء العرب بأعيادهم.

تُقام في العالم أعدادٌ كبيرةٌ من المهرجانات والكرنفالات والاحتفالات بالأعياد وغيرها من المناسبات سنوياً، وتتم في صورٍ مختلفةٍ تتقاطع جميعها في الجمال وزرع البهجة، وحسن التنظيم الذي يجذب الناس، فيقصدها بناءً على ذلك الجذب الملايين من السياح من مختلف الدول؛ فكم هو عدد السياح الذين يقصدون بلادنا لحضور احتفالات أعيادنا ومناسباتنا إن كان هناك احتفالاتٌ جذابةٌ أصلاً؟.

الأرقام الصحيحة مفقودةٌ في معادلة صناعة المرح في بلادنا، وهذه حقيقةٌ لا يمكن تجاهلها، وليس في العيد فقط، بل في جميع أيام السنة للأسف الشديد.. يجب أن يتغيّر الوضع عاجلاً وجذرياً، فقد ملَّ الناس مثلاً من التجمهر لمشاهدة الألعاب النارية المكررة في كل عام، وفي وقت محددٍ، وأمكنةٍ لا تستطيع الوصول إليها أصلاً إلا بعد انتهاء العرض، بسبب زحام السيارات، وإذا وصلت فلن تجد أمامك إلا عرضاً لا يتجاوز عشر دقائق، ولا يمكنك الجلوس في مكانٍ مريحٍ لمشاهدته، بل يجب عليك الوقوف في الشارع، أو البقاء في سيارتك أنت ومن معك.

لقد طفح الكيل، ونريد متعةً حقيقيةً طيلة العام.. نريد صالاتٍ سينمائيةً لعرض كل ما يُعرض من الأفلام في العالم، ودون وصايةٍ أو رقابةٍ من أحد، وحبذا لو أقيم مهرجانٌ سنوي لذلك (كمهرجان كان الفرنسي)، أو على الأقل كمهرجان دبي السينمائي الدولي مثلاً.

نريد سيركاً فعلياً وليس مجموعةً من الخيام التي حضرتُ

شخصياً أحد عروضها، فندمت على قيمة التذكرة، بعد أن قارنته بأسوأ عروض السيرك التي حضرتها في الخارج، فوجدته-أي الخارجي ـ أفضل منه بمراحل في جميع النواحي، وعلى رأسها التنظيم، والإعلان المبكر، واتساع المساحة المخصصة للعارضين والمشاهدين، وعدم وجود (ضوابط تعيق حرية المشاركين في العرض)، إضافةً لدرجة الحرارة؛ فقد خرجنا من تلك الخيمة وملابسنا تقطر عرقاً من شدة الحر.

ونريد مسرحياتٍ حقيقيةً (لا تسبب النعاس). فالمسرح هو أعرق الفنون البشرية، وقد بدأ منذ العصور الإغريقية والرومانية الموغلة في القدم، وما زال مقياساً هاماً يعكس حضارات الشعوب وثقافاتها، ولن نرضى ببعض العروض التسكيتية التي لا تسمن ولا تغني من جوع؛ لأن غالبها ليس له من المسرح ـ بمعناه الصحيح ـ إلا اسمه، ولأن المشاهد قد يخرج منها وهو في قمة الكآبة وضيقة الصدر، بسبب الفشل الذريع الناتج عن غياب مقومات وأدوات وعناصر العمل المسرحي الكامل والسليم، والذي لا زال مقيداً بكثيرٍ من القيود الاجتماعية والدينية المتطرفة المبالغ فيها؛ إضافةً للفوضى وسوء تنظيم الأماكن في غالب تلك المسرحيات.

ولا أجد مهرباً من ضرورة الإشارة إلى الموقف السلبي لبعض المحتسبين، الذين يعترضون على الرقص والفرح وسماع الموسيقى في بعض الأماكن العامة في أيام الأعياد، التي لا تحلو إلا بالطرب والغناء في جميع دول العالم.. يعترضون ـ هداهم الله ـ متجاهلين

رسالة الفن السامية التي ليس من حقهم منع الناس من الاستمتاع بها؛ لمجرد اقتناعهم بقولٍ فقهي مرجوح.

قلتُ سابقًا وأكرر في هذا الكتاب: فتاوى تحريم الموسيقى سببٌ رئيسيٌّ في جفاف مشاعر هذا الشعب، وانتشار الانتحار والاكتئاب، والجريمة بمختلف أشكالها فيه! والله إن في سماع الأغاني أجراً كبيرًا؛ لأنها من أسباب راحة الإنسان وسعادته، وانشراح صدره، وتخفيف ضغوط حياته، كما أثبتت الدراسات العلمية الحديثة.

باختصار: نحن نطالب ـ دون قيدٍ أو شرطٍ ـ بكل أنواع وألوان ومظاهر الترفيه، التي نشاهدها ونجدها عند سفرنا للخارج، فتسعدنا وتفرحُ بها قلوبنا وأرواحنا، وتهش وتبش لها وجوهنا رجالاً ونساءً وأطفالاً، بدليل الأعداد الهائلة من الهاربين سنوياً للسياحة الخارجية.

وإذا كان هناك من يعارض ذلك من أبناء الوطن، فلن يلزمه أحدٌ بالمشاركة فيها أو التفاعل معها، وبإمكانه البقاء في بيته وإحكام إغلاق أبوابه عليه كما أحكم إغلاق أبواب تفكيره، ونضمن له أنه لن يُسحب بالقوة، ولن يُجبر على التمتع بجماليات الحياة.

القصيميُّ شاعراً

لا أعتقد أن سعودياً لا يعرف عبدالله القصيمي، بل وأعتقد أن غالب العرب وكثيراً من غيرهم يعرفه أيضاً، فالراحل قامةٌ فكريةٌ شامخةٌ، وليس بحاجةٍ لثنائي على عقليته الفذة التي ملأت أدراج المكتبات بمؤلفاتٍ مازال الخلق يسهرون جرّاها ويختصمون.

أحببتُ أن أعطر هذا الكتاب بذكر شيءٍ من سيرة هذا الرمز التنويري الكبير، فوجدتُ غيري قد سبقني إلى الحديث والكتابة عنه بشكلٍ مستفيضٍ، فرأيتُ أن أسلط الضوء على جانبٍ خفيٍّ قد لا يعرفه الكثير من محبيه، وهو أن القصيمي كان شاعراً متمكناً من أدواته بشكل لا يقل عن تمكنه من الكتابة نثراً، ومن أمثلة تلك الشاعرية المتوقدة قوله مفتخراً بنفسه ـ على الوافر ـ في مقدمة كتابه «شيوخ الأزهر»:

إذا أنزلت بأسي في قبيلٍ.. فويلٌ للأبين وللبنينا.. أغرّ مخاصمي صغري وهزلي.. كأنَّ المجدَ في عد السنينا.. وهزلي لا

أبا لك من شعوري.. وجسم الحر لا يأتي سمينا.. ومن أغبى وأغبن من عظيم.. تعرض سخطتي فغدا مهينا.. ومن هاج الهزبر فليس بدعاً.. إذًا يلقى بهيجته المنونا.

ومن شعره الجميل أيضًا قصيدةٌ نشرها سفيرٌ يمني كان يحتفظ بها مكتوبة بخط أبي علي، وقد جاءت على تفعيلة الرمل (فاعلاتن) وموضوعها (لبنان)، التي عاش فيها شاعرنا وأحبها بعد طرده من مصر، وقد تطرق فيها لبعض الأحداث السياسية في ذلك الوقت، والأبيات طويلةٌ اختصرتها ورتبتها فجاءت هكذا:

كنتَ يا لبنان زهراً.. في عباءات العروبة.. كنت يا لبنان فجراً.. في دياجير العروبة.. كنت عطراً فوق أوحال العروبة.. كنت جسراً فوق صحراء العروبة.. كنت شعراً لم تؤلفه العروبة.. كنت يا لبنان ضوءاً.. راع فئران العروبة.. كنت يا لبنان غيظاً.. لقيادات العروبة.

غاظهم فيك انتصارٌ.. قاهرٌ كبر الزعامة.. هم أرادوك بداوة.. هم أرادوك عباءة.. لم يطيقوك حضارة.. لم يطيقوك كرامة.. هم أرادوك نذالة.. لم يطيقوك سحابة.. هم أرادوك ذبابة.. كانت القصة صعبة.. كانت الضربة ضربة.. كانت الخطة هجمة.. واضعوها همجٌ.. نفذوها بشراسة.. رفضوه أمةً.. وأرادوه عصابة.. رفضوه زهرةً.. وأرادوه قمامة.. راعهم منتصراً.. فأرادوه هزيمة.. راعهم مزدهراً.. فأحالوه حريقة.. عاقبوه حسداً.. لمزاياه الأنيقة.. لم يطيقوه جمالاً.. وأرادوه

دمامة.. لم يطيقوه انفتاحاً.. واهباً للحب بابه.. بل أرادوه انغلاقاً.. وأرادوه عداوة.. لم يريدوه رخاءً.. بل أرادوه تعاسة.. بل أرادوه حماقة.. بل أرادوه بشاعة.. آهٍ من عارٍ بقومي.. إنهم للعار قادة.. آهٍ من سادات قومي.. إنهم مجد الجهالة.. آهٍ من أمجاد قومي.. إنها أغبى رواية.. آهٍ يا تاريخ قومي.. أنت عارٌ للرواة.. أنت عارٌ للرواية !

وله قصيدة ثالثة تتجاوز الخمسين بيتاً ـ على البسيط ـ في مدح الملك عبدالعزيز، ومطلعها قوله: وقفتُ بالدار أُمري الدمع والجزعا.. على طلولِ أُهيلٍ جُرِّعوا الضَّبعا، إلى أن يقول: قامت به دولة العلياء واتّحدتْ.. من بعدما لبست من ذلةٍ خِلَعا.. سهلٌ إذا جئتَه للحقِّ مطّلبًا.. صعبٌ إذا جئته للظلم مطّبعا.. غيثٌ إذا جئته طلّاب نائلةٍ.. صرٌّ إذا جئته للجور متّبعا.. ومن يكن صاحبًا نفسًا معظَّمةً.. يلقَ المتاعبَ في دنياه والوجعا.

وبما أن الحديث عن القصيمي والشعر، فمن المناسب هنا أن أشير إلى قصيدةٍ طويلةٍ كتبتها في رثائه إبّان وفاته رحمه الله، عنوانها «وداعاً أيها الرعد المدوي» وهي موجودة في الإنترنت، ونُشرتْ في عددٍ من الصحف والمواقع الإلكترونية.

الفرق بيننا وبينهم

إن الأمم المتقدمة الناجحة التي ننعتها دائماً بأقسى وأقذع أوصاف الضلال والفسق والكفر والانحراف، لم تكن لتتقدم وتنجح في مختلف الميادين، ولم يكن لها أن تصل إلى ما وصلت إليه من عظمةٍ وحضارةٍ ومجدٍ، إلا بفضل إخضاعها ـ غالباً ـ كلَّ معلومةٍ أو فكرةٍ أو مفهومٍ أو رأيٍ أو نظريةٍ أو مبدأٍ لمعايير المنفعة الواقعية المتحققة على الأرض.

فالتجارب الإنسانية هي (مقياس النجاح) عند الشعوب العظيمة المنتجة المبدعة، التي تقدِّس كل وسيلةٍ توصلها لغايةٍ نفعيةٍ عمليةٍ، والمشاعر والأحاسيس المتحمسة والعواطف الجيّاشة ـ في المقابل ـ هي المقياس الذي تعمل به الشعوب الرجعية المتخلفة التي تعتبر أيَّة وسيلةٍ فاضلةٍ من تلك الوسائل رذيلةً؛ إذا عارضتْ مسلماتها التي لم يُفكّر غالبُ معتنقيها أصلاً في جدواها.

وأقصد بنجاح تلك الشعوب، تحقيق الغايات البشرية ومطالب

الأفراد الحياتية، التي تنحصر عندي في الماتع والنافع، أو (المفيد واللذيذ) بعبارةٍ أخرى، وذلك بسلوك كلِّ مسلكٍ يحققها، وممارسة كلِّ وسيلةٍ تؤدي إليها، فتلك الوسائل ـ عندي ـ هي «أم الفضائل»، مهما تعارضت مع القناعات الأخلاقية الروحانية العاطفية التي لا تسمن ولا تغني من جوعٍ في هذا الزمن، ومهما اعتبرها العاجزون عن ممارستها أو الخائفون من سلوكها رذائل، وقد تختصر علينا مقولة ميكافيلي الشهيرة كثيراً من الكلام هنا حين قال بكل جمال واختصار: «الغاية تبرر الوسيلة».

نأتي لأفكارنا الآن، وأقصد بها تحديداً تلك المنظومة المترابطة من النظريات والمعلومات والرؤى والعادات والتقاليد والأعراف، وبعض المفاهيم الثقافية الاجتماعية السائدة بسبب (الإلف والتعويد) من جهةٍ، أو بسبب (التوارث والتقليد) من جهةٍ أخرى، والتي تحكمنا وتسيطر علينا بشكلٍ شاملٍ وشديد، منذ قرونٍ طويلةٍ، رغم أنوف المعارضين لها، أوالمطالبين بالتأكد من جدواها على أرض الواقع؛ لعجزهم عن التغلب على الكثرة الراضية بها، والتي تظن أنها حقائق ثابتةٌ ومسلماتٌ سليمةٌ لا تقبل الجدل والنقاش.

هل تلك المعلومات والنظريات والأفكار والرؤى والأخلاق والقوانين والعادات والتقاليد والقناعات والآراء الكبيرة العامة التي تدير دفة مجتمعنا.. هل هي مسلماتٌ سليمةٌ فعلاً؟ وهل هي حقائق قطعيةٌ يقينيةٌ؟! وهل هي قبل ذلك ـ وهو الأهم ـ واقعيةٌ مثمرةٌ تحقق مصالحنا في هذه الحياة، وتجلب لنا المنافع والمتع

واللذّات الدنيوية المطلوبة؟ وهل تأكد مَن يجيب بنعم مِن تلك الواقعية والنفعية باستخدام المعيار البراغماتي الذرائعي ـ الذي أراه صحيحًا ـ عند قياس مدى صحتها وسلامتها؟

لا يكفي أن نقرر أو أن نقول نظرياً: إن منظومتنا الفكرية الثقافية السائدة المسيطرة مفيدةٌ ومثمرةٌ ونافعةٌ لنا، (بل يجب فرز أفكارها فكرةً فكرة)، وبهدوءٍ ووسائل متعددةٍ تختلف باختلاف الأشخاص وقدراتهم ومواهبهم، وإمكاناتهم المتوفرة والمتاحة لهم، وأساليبهم العقلية المتفاوتة، ومن ثم إخضاع كل فكرةٍ منها ـ بعد الفرز والتنظيم ـ إلى معيار المنفعة والمصلحة واللذة والراحة الإنسانية، وهذا لا يكون إلا بالتجربة العملية من ناحيةٍ، وبمقارنتها المنطقية بمثيلاتها من الأفكار والقناعات الإنسانية الأخرى من ناحيةٍ ثانية.

جرّبوا أن تفكروا في ذلك الكم الرهيب من الآراء والمعلومات والقواعد المتوارثة الشائعة بيننا، بل والحاكمة لنا والمسيطرة علينا في جميع شؤوننا، وبشكلٍ عجيبٍ غريبٍ مريبٍ مثيرٍ للدهشة، بل وللشفقة أيضاً في تقديري؛ جرّبوا .. فإن وجدتموها واقعية نافعةً مفيدةً تحقق مصالحنا واحتياجاتنا، وتتناسب مع طبيعة الحياة العصرية، فارموا بموضوعي هذا في سلة المهملات، بعد أن تضربوا به عرض الحائط. وإن وجدتموها خياليةً وهميةً هلاميةً بعيدةً عن الواقع والنافع والرائع والماتع، فلماذا لا تتضافر الجهود لتقويضها وإعادة بناء ما يقبل الترميم منها، وإبدال ما لا يقبل ذلك بغيره؟!

لا تُحكِّموا عواطفكم وقلوبكم ومشاعركم وضمائركم وبعض خرافات أجدادكم هنا، وحاولوا ولو محاولةً أن تحكّموا عقولكم، وأن تستعرضوا أفكارنا وقناعاتنا ومُثُلنا وقيمنا وأنظمتنا السائدة، وتخضعوها واحدةً واحدةً ـ مهما طال أمد ذلك ـ إلى «مقاييس النجاح السليمة» للنظريات والمعلومات والأفكار، مستحضرين أثناء إخضاعكم فحوى هذا الموضوع الذي ألخصه باختصار فأقول: (إن الانتصار المادي المُدْرَك على أرض الواقع هو البرهان الوحيد الأكيد على صحة كل أمرٍ نظري، بعيداً عن جميع القيود الأخلاقية أو الاجتماعية أو غيرها من الأغلال التي تمنع أو تحد من (التمحور على مصلحة الفرد ومتعته الدنيوية) وخصوصاً في هذا العصر الذي يشهد إرهاصات قيام كيان الأيديولوجية الإنسانية الواحدة المكوَّنة من خليطٍ ضخمٍ من الصالح للتطبيق من أفكار ومعتقدات الشعوب.

يا ترى كم هي نسبة الذي سينجح من عناصر منظومة قناعاتنا المجتمعية السائدة والمترابطة، في اجتياز اختبارات السُعود والمصالح السالفة الذكر؟ وهل سيكون ذلك النجاح مؤهِّلاً للدخول ـ إن صح التعبير ـ في تركيب كيان الفكرانية البشرية المشتركة، التي بدأت تلوح ملامح قدومها في الأفق؟!

أم أن جميع أو غالب عناصرها سيخفق في اجتياز تلك الاختبارات؟ ليبقى كما كان عالةً على البشر!

إن تقويض سيادة الجهل والتخلف والرجعية والإرهاب والظلام، التي جعلتنا عالةً على الحياة والإنسانية؛ إن تقويض أسس

تلك السيادة، وهدم مناراتها الزائفة لن يكون سهل المنال، إلا إذا وقف الأحرار من أبناء هذا الوطن أمام جيوشها كالبنيان المرصوص، الذي يشد بعضه بعضا؛ ففيروسات الأمراض الفتاكة التي تقطن في جسد منظومتنا الإيديولوجية من أشد الفيروسات الفكرية وأعتاها وأكثرها شراسةً ومقاومةً للأدوية الحداثية الجديدة، التي تحتاج لكثيرٍ من الإصرار وطول النفس والمثابرة والتكاتف، وتضافر جهود الأحرار ليظهر مفعولها في ذلك الجسد العليل.

إزعاج المتشددين في رمضان

يا لها من قضيةٍ.. ويا له من إزعاجٍ وتسلطٍ وتنكيدٍ شديدٍ فاق حدود الصبر والسكوت..

لقد ضقنا ذرعا بتصرفات بعض المتدينين الذين تتزايد وتيرة إزعاجهم للناس عاماً بعد عامٍ، وخاصةً في شهر رمضان الكريم. وتأخذ تلك المضايقات صوراً كثيرةً لا يمكن حصرها، ولعل من أبرزها ما يلي:

- استمرار كثيرٍ من المؤذنين وأئمة المساجد والدعاة والوعاظ في استخدام مكبرات المساجد بصوت مرتفع، متجاهلين جميع التعليمات والتعاميم التي تنص على إقفال المكبرات الخارجية أثناء الصلاة الجهرية وقصر استخدامها ـ وبصوت منخفض ـ على الأذان والإقامة فقط، فهذا الإزعاج المستمر قد يصيب بعض الناس ـ على المدى الطويل ـ بأمراض السمع، والمشاكل النفسية الناتجة عن عدم القدرة على الراحة والاسترخاء، خصوصاً من

يسكن أو يعمل بجوار مسجدٍ أو جامعٍ؛ بالإضافة إلى تضرر كثيرٍ من كبار السن والمرضى والأطفال بهذه الأصوات المرتفعة، فأين وزارة الشؤون الإسلامية عن هؤلاء؟!

- إقحام كثيرٍ من المتدينين أنفسهم في شؤون الآخرين، وبطريقةٍ فجةٍ منفِّرةٍ غليظةٍ قبيحةٍ منكرةٍ، كتقديم ما يعتبرونه نصيحةً في أمورٍ شخصيةٍ كسماع الموسيقى، أو حلق اللحية أو طريقة قص الشعر، أو إطالة الثوب أو التدخين أو نوعية اللباس وشكله ولونه، أو كشف المرأة لوجهها، أو غير ذلك من الأمور التي تدخل ضمن حريات الأفراد الخاصة، والتي لا يحق لأحدٍ من الناس التدخل فيها؛ لمجرد اقتناعه برأيٍ فقهيٍّ مغايرٍ.

- تسلط أعضاء هيئة الأمر بالمعروف على الناس في الأسواق وغيرها بطريقةٍ وحشيةٍ مدهشة، وبشكلٍ عجيبٍ ومكثفٍ وغير مبرر، وممارسة أبشع وأسخف أنواع الوصاية وفرض الأوامر على الناس ذكوراً وإناثاً، فلا يحق للمرأة إلا لبس ما يريدون وبالطريقة التي يريدون، ولا يحق للرجل التسوق إلا في وقت معين، وفي أمكنةٍ دون أخرى، وإجباره على إحضار أسرته معه عند قيامه بشراء أغراضه الشخصية، بل ويجب أن تتم جميع تعاملات الأفراد في المحلات والمطاعم والأماكن العامة الأخرى تحت مراقبتهم، إضافة لاقتياد الناس للمساجد بالقوة والإجبار والإكراه، رغم علمهم بأن صلاة الجماعة ليست واجبةً عند جَمْعٍ كبيرٍ من علماء الإسلام المعتبرين قديماً وحديثاً، ورغم إدراكهم

أيضاً أن العبادة لا قيمة لها إلا إذا تمّت بمبادرةٍ ورغبةٍ شخصيةٍ واقتناعٍ من العابد نفسه، وغير ذلك الكثير من الممارسات اللاحضارية التي يقومون بها ويطول شرحها.

- طلب الأموال من الناس وجمعها بمختلف الوسائل، وبحماسٍ منقطع النظير، بحجة الصدقة، مستغلين عواطف الناس الإيمانية الجيّاشة في هذا الشهر، رغم أن مصير تلك الأموال ما زال في الغالب غامضاً أو مجهولاً، بل وقد يرتبط - كما قد حدث - بجماعاتٍ متطرفةٍ تسعى لزعزعة الأمن، أو القيام بأعمالٍ تخريبيةٍ أو مخالفةٍ للنظام في هذا الوطن العزيز.

فمتى يتم إيقاف المتجاوزين منهم عند حدهم؟ ومتى يشعر الناس في بلادنا أنهم قادرون على الحياة بحريةٍ كاملةٍ دون تنغيصٍ كبقية سكان الأرض وشعوبها؟

همسةٌ في أذن كل متشددٍ مزعجٍ:

عش حياتك يا عزيزي كما تريد، ودع الناس يعيشون حياتهم كما يريدون.

وفيك انطوى العالم الأكبر

يقرأ الإنسان أحياناً حواراً أو مقالاً أو كتاباً، فيخرج منه بجملةٍ أو فقرةٍ يلتقطها كما يلتقط الصياد سمكةً بسنارته، فترسخ في ذهنه تلك المقولة وتتغلغل في أعماق عقله.

وينتج غالباً عن تفكيره العميق في هذا الصيد الذي خرج به كثيرٌ من الأفكار والتأملات المتشعبة، ولاسيّما إذا كان ضيف ذلك الحوار، أو كاتب تلك المقالة، أو مؤلف ذلك الكتاب، محبوباً عند القارئ، أو شديد التأثير عليه.

وهذا ما حدث معي وأنا أقرأ حوارًا جميلاً أجرته صحيفة «الحياة» مع أستاذنا القدير الدكتور إبراهيم التركي، فقد استوقفني مليّاً قول أبي يزن في آخر ذلك الحوار الماتع: «يضيع وقته من يظن الانتماءات الثقافية ذات حدودٍ فاصلةٍ قاطعةٍ مانعة».

نعم، إن الإنسان ـ رغم أنفه ـ خليطٌ من تراكماتٍ معقدةٍ عويصةٍ مختلفة المشارب، سواء في موضوع الانتماءات الثقافية التي

تحدَّث عنها الدكتور، أو في غيره من الانتماءات، بل وفي غير موضوع الانتماءات من المواضيع المشابهة الكثيرة.

أنظروا إلى دقة وجمال قول الأول:

وتَـزْعُـمُ أَنَّـكَ جِـرمٌ صَـغـيـرٌ وَفـيـكَ انـطَـوى الـعـالَـمُ الأَكـبَـرُ
فَـأَنـتَ الـكِـتـابُ الـمُـبِـيْـنُ الَّـذي بِـأَحْـرُفِـهِ يَـظـهَـرُ الـمُـضْـمَـرُ

فكيف لمن ينطوي في داخله عالمٌ كبيرٌ أن يكون منتمياً انتماءً كاملاً أو منتسباً انتساباً تاماً له حدودٌ فاصلةٌ قاطعةٌ مانعةٌ، تفصله عن غيره، وتمنعه من التأثر بالانتماءات أو الانتسابات الأخرى؟

كلا كلا.. إنه ليس عالماً واحداً بل عوالم معقدةٌ متشابكةٌ، منها الفسيولوجي ومنها السيكولوجي، تتصارع في أعماقه.. تتصارع في أعماقه معلوماتٌ وعاداتٌ وعقائد وتقاليد ومواقف وذكرياتٌ ومعارف ونوازع ورغباتٌ وشهواتٌ وطموحاتٌ وأحلامٌ وأفراحٌ وأتراحٌ وصدماتٌ ومشاهد وقراءاتٌ وتجارب ونجاحاتٌ وإخفاقاتٌ وتساؤلاتٌ لا تنتهي، وشكوكٌ دفينةٌ في أشياء كثيرةٍ، مهما زعم أنه ينتمي انتماءً كاملاً مستقلاً، أو يؤمن إيماناً يقينياً قاطعاً بمذهبٍ أو منهجٍ معينٍ لا يحيد عنه قدر أنملة.. كيف لهذا الإنسان الذي يحمل في داخله كل ما ورد أعلاه أن يكون منتمياً انتماءً تفصله عن غيره من الانتماءات أسوارٌ عاليةٌ شديدة التشييد والتحصين؟!

لعمري إن هذا لهو المحال الأكبر الذي لا يمكن حدوثه ـ في رأيي ـ مهما قالوا ورددوا وكرروا وأقسموا.

وما أجمل قول الشاعر أيضاً في الأبيات السابقة: «كتاب مبين». فكيف يكون الإنسان كتاباً مبيناً؟! هل يمكن أن يكون الإنسان مشابهاً للكتاب المبين؟

دعوني أستطرد قليلاً وأبحر بخيالي في تلك الصورة البلاغية: الإنسان كالكتاب الكبير الذي يضم آلاف الصفحات، وكلُّ صفحةٍ من صفحاته يومٌ من أيام عمره، وكلُّ سطرٍ في الصفحة هو موقفٌ مر به، أو معلومةٌ اكتسبها، أو تجربةٌ خاضها، أو حدثٌ تأثر به في ذلك اليوم.

والناس الذين يقابلون هذا الإنسان، أو يستمعون لحديثه، أو يقرأون ما يكتبه أو ما يرسمه، أو غير ذلك من صور التعبير، هم القراء لهذا الكتاب المبين؛ ولذلك عندما يتعرف الواحد منا على صديقٍ أو زميلٍ جديدٍ مثلاً، فإنه لن يتمكن من الحكم عليه أو التعامل معه بسهولةٍ وبسرعةٍ، بل لابد من قضاء أوقاتٍ طويلة في تأمل عددٍ من الصفحات المعقدة في كتاب ذلك الإنسان، فقد تعجبك اليوم صفحةٌ من صفحاته، وتصدمك أو تزعجك غداً صفحةٌ أخرى!

الإنسان عامةً والمثقف خاصةً، في كل يوم جديدٍ هو نتيجةٌ جديدةٌ لما مر به من المعلومات والمواقف في الأيام السابقة لذلك اليوم؛ ولهذا تتغير توجهات الناس وأفكارهم وقناعاتهم بين الحين والآخر، فكلما زاد الاطلاع وزادت المعلومات والتجارب التي تمر بالإنسان، زادت معها تحولاته وتقلباته الثقافية والفكرية وغيرها من التحولات.

كم وكم صديقٍ سمعته يقول: أنا أنتمي بشكل كامل لهذه الطائفة، أو لهذا التيار أو لتلك الحركة، أو لذلك الحزب، ثم أكتشف من خلال معاشرته، وكثرة الاستماع لحديثه، ومتابعة أفعاله أنه يحمل من الأفكار ما يتناقض جزئياً أو كلياً مع أصول أو تعاليم أو مفاهيم ذلك الحزب أو المذهب الذي يزعم الانتماء أو الانتساب إليه؟

أعود للتحوّل، فقد يكون تحول الإنسان كاملاً في الظاهر، كانتقاله من دينٍ إلى دين، أو من مذهبٍ عقديٍّ أو فقهيٍّ أو منهجٍ فكريٍّ إلى مذهبٍ أو منهجٍ آخر؛ ولكنه في هذه الحالة لابد أن تبقى لديه كثيرٌ من رواسب دينه أو مذهبه أو منهجه الأول، مهما حاول أو زعم التخلص منها، وسيكتشف الآخرون ذلك بمجرد متابعة أقواله وتصرفاته بدقة.

وقد يكون التحوّل كبيراً ولكن ليس كاملاً، وقد يكون طفيفاً لا يلاحظه الناس عليه بسهولة، بل قد لا يلاحظه هو على نفسه أيضاً في بعض الأحيان.

وقس على ذلك مثلاً الانتماءات القبلية أو الأسرية أو المناطقية، فنلاحظ كثيراً على الإنسان الذي ينتمي إلى قبيلةٍ أو أسرةٍ أو منطقةٍ معينة، أنه ينطق ببعض المفردات الخارجة عن لهجة قبيلته أو أسرته، أو يمارس بعض العادات التي لا يمارسها الناس في محيطه الاجتماعي، والسبب أنه تأثر بإنسانٍ آخر أو بمجموعة أفرادٍ آخرين من قبائل أو مناطق أو دولٍ أخرى، سواء شعر بذلك أم لم يشعر.

الإنسان يتأثر بكلِّ شيء.. الإنسان في يومه ليس إلا خليطاً من تأثراته السابقة بالبشر، الذين خالطهم أو قرأ أو استمع لهم في أمسه، والإنسان في مستقبله ليس إلا خليطاً معقداً من تأثراته بآخرين في أمسه ويومه.

ويتأثر الإنسان بغير البشر أيضاً، كتأثره بالطبيعة المحيطة به، وبمناخ وتضاريس بيئته، وبالكائنات الحية المختلفة التي يقضي معها أو بقربها أوقاتاً طويلة، وقد يكتشف أحدنا إذا تأمل جيداً تصرفات بعض المخالطين لأنواع معينةٍ من الكائنات الحية، أنهم يمارسون في حياتهم بعض السلوكيات والأعمال التي أخذوها من تلك الكائنات.

الخلاصة هي: لا يوجد انتماءٌ كاملٌ في نظري إلى أي شيء.. ولا يوجد شخصٌ يتطابق مع شخصٍ آخر في كل الأفكار والقناعات، بمختلف صورها وأنواعها.

انظروا للموضوع من هذه الزاوية أيضاً: الفيلسوف غالباً هو نتيجة تراكماتٍ أخذها من فلاسفةٍ سبقوه، فتصارعت وتمازجت في أعماقه ثم تبلورت فخرج لنا بفلسفته الجديدة، وكذلك الشعراء والكتّاب وغيرهم، بل والأنبياء أيضاً وغيرهم من رجال الأديان، فقد قضيتُ سنواتٍ طويلةٍ من عمري باحثاً في العقائد والملل والنحل، وخرجت من ذلك بنتيجةٍ مفادها: أن غالب العقائد في مختلف مناطق العالم ليست إلا خليطاً من عقائد سابقةٍ، وأن كل منهجٍ دينيٍّ روحانيٍّ هو خلاصة اختيارات صاحبه من المذاهب

العقائدية الروحانية التي سبقته، أو التي عاصرها في مراحل متقدمةٍ من حياته.

وتجدر الإشارة في الختام إلى أن كثيراً من الانتماءات ليست نتيجة قناعاتٍ حقيقيةٍ ناضجةٍ صادقة، بل نتيجة احتياجٍ إلى الحماية أو المساندة أو المنفعة أو الدعم، أو غير ذلك من الاحتياجات التي تجبر الفرد على تصنّع الانتساب إلى مجموعةٍ بشريةٍ معينةٍ ذات نسقٍ أو نظامٍ يربط أفرادها بعضهم ببعض.

هل فهمتم الحياة..؟!

سألني مفكِّر تنويريٌّ جميلٌ قبل سنواتٍ هذا السؤال: هل تشعر بأنك فهمت الحياة يا وائل؟ فأجبته عنه؛ فباغتني بعده مباشرةً بسؤالٍ آخر لا يقل عمقاً عن الأول قائلاً: هل ترى أن الحياة سهلةٌ واضحةٌ أم معقدةٌ غامضةٌ؟ وأجبته عنه أيضاً.

انتقلَ الأستاذ الكبير بالسؤال إلى أشخاصٍ آخرين في المجلس نفسه، وانقسم الأصدقاء في إجابة السؤالين السابقين إلى أربعة أقسام؛ فمنهم من أجاب عن السؤال الأول بقوله: نعم، فهمت الحياة. وهؤلاء أجاب غالبهم عن السؤال الثاني بقولهم: الحياة واضحةٌ سهلةٌ. أما القسم الثاني فكان جوابهم: لا، لا أشعر بأني فهمتها. وأجاب أكثرهم عن السؤال الثاني بقوله: الحياة صعبةٌ، معقدةٌ، غامضة. وهناك فئةٌ قليلةٌ كانت تجيب بنعم عن السؤال الأول وبتعقيد الحياة عن الثاني، وحصل العكس أيضاً في فئةٍ أقلّ أجابت بلا عن السؤال الأول، وبسهولة الحياة ووضوحها عن الثاني!

ومما لفت انتباهي في أسلوب ذلك الصديق، أنه كان لا يسترسل في النقاش مع الذي يجيب بلا وبتعقيد الحياة، ويسترسل قليلاً محاولاً فهم السبب مع من يجيب بنعم وبسهولة الحياة، ويسترسل كثيراً مع المجيبين بلا وبسهولة وبساطة الحياة، ويسترسل أكثر مع المجيبين بنعم وبتعقيد الحياة وصعوبتها. وكان يستمتع كثيراً ويتبسم وهو يستمع لتبرير الذين استرسل معهم كثيراً دون غيرهم.

في الحقيقة لم أكن مستوعباً لكامل أهدافه، ولا لعمق مغزاه من ذلك في البداية، لكني تفهَّمتُ الموضوعَ، وأعجبت به بعد فترةٍ من تأمله بعمق، وربط خيوطه ببعضها، لدرجة أني أصبحت أطرح هذين السؤالين على كثيرٍ من الناس، وخصوصاً من تكون معرفتي به قريبة، وأرغب في التعرّف أكثر على عقليته وشخصيته وتوجهه وخبرته وطريقة تفكيره، ولا أسترسل كثيراً إلا مع الذين يجيبون بالإجابات نفسها التي استرسل صديقي العزيز المذكور مع أصحابها في ذلك المجلس الطريف.

فهل تشعرون أنكم فهمتم الحياة؟ وهل ترون أن الحياة سهلةٌ واضحةٌ؟ أم أنها معقدةٌ صعبةٌ غامضة؟!

التنويرُ ملكاً

يسعد عشّاقُ الحريّة ودعاة النهوض بالقديم وتطويره، ومحبو الانتعاش والازدهار في أي مجتمع، بالجهود التنويرية التي يقوم بها رموزه البارزون وعليته الذين يشار إليهم بالبنان، أكثر من سعادتهم بجهود غيرهم من الناس رغم أهميتها؛ لأن تأثير جهود الكبار يكون كبيراً دائماً. فكيف إذا كان القائم بتلك الجهود هو أكبر كبار الوطن؟. لا شك أن السعادة ستكون أعظم وأشد.

كم ذرفتْ أعينٌ بل عيون قلوب محبي النهضة والانفتاح، وعشاق النمو والانتعاش دموعَ الفرح ابتهاجاً واستبشاراً بالقرارات الملكية الكريمة الكثيرة، التي يصدرها بين الفينة والأخرى خادم الحرمين الشريفين ـ حفظه الله ـ لدعم مسيرة التنوير والحرية والتقدم في هذا الوطن الشامخ؛ ولكنها تذرفُ ـ في المقابل ـ دموع الحزن والحسرة والحرقة والألم، حين تشاهد تلك القرارات الجليلة تصطدم بصخور العقبات الكأداء المصطنعة، والعراقيل المفتعلة، التي يبذل بعض المتشددين دينياً الغالي والنفيس في سبيل صنعها

ونشرها وزيادتها لإجهاض مشروع الملك بكل ما أوتوا من قوة!

تذرف عيون تلك القلوب، والعقول المستنيرة دموعَ الحزن، فتردد ألسنتهم تلك الأبيات الشعرية الخالدة، التي يُخيَّلُ إلى من يتأملها جيداً أن الضرير المخضرم بشار بن برد اطلع على الغيب، وشاهد قبل أكثر من ألف سنة ما سيحدث في مجتمعنا اليوم، فكتب هذه الأبيات الجميلة ـ التي طالما استوقفتني ـ في وصف حالنا البئيس الذي يعيشه مجتمعنا السعودي في هذه الحقبة للأسف الشديد جداً، مع ضرورة الإشارة هنا إلى أن بعض كتب الأدب تنسب هذه الأبيات إلى شاعر الأمثال الحكيم صالح بن عبد القدوس:

وَإِنَّ عناءً أَنْ تُفَهِّمَ جَاهِلاً فَيَحْسَبُ جَهْلا أَنَّهُ مِنْكَ أَفْهَمُ!

مَتَى يَبْلُغُ الْبُنْيَانُ يَوْمًا تَمَامَهُ إِذَا كُنْتَ تَبْنِيهِ وَغَيْرُكَ يَهْدِمُ؟

مَتَى يَنْتَهِي عَنْ سَيْءٍ مَنْ أَتَى بِهِ إِذَا لَمْ يَكُنْ مِنْهُ عَلَيْهِ تَنَدُّمُ؟!

لعمري إنها تنطبق تماماً على واقعنا، فما أشد عناء المثقفين الأحرار، الذين يجتهدون ويبذلون كل ما في وسعهم لتصحيح مسار عشاق الهدم والوصاية في مجتمعنا، وإفهامهم أن التقدم والتطور والازدهار لا يتم إلا في المجتمعات المثقفة المستنيرة ذات المُناخات الحرّة، التي يتنفس الناس هواءها العليل دون أن يزعج أو يضايق أحدٌ أحداً.. وأيم الله إنه لعناءٌ ما بعده عناء أن يجتهد المستنير في إفهامهم وتوضيح هذه الصورة لهم، وتحذيرهم من خطورة مسلكهم على الوطن، فلا يجد منهم استجابةً إلا بالهجوم

على شخصه ومحاربته بكل قسوةٍ وقوةٍ، والإساءة إليه بأبشع وأشنع صور الإساءة متوهمين أنهم أفهم منه!

فمتى يبلغ بنيان مليكنا تمامَه أيها المسؤولون والمهتمون والمعنيون بمتابعة تنفيذ قراراته.. متى يبلغ البنيان كماله وهناك من يعمل في الخفاء والعلن بكل حماسٍ لإعاقة المشاريع الحداثية التجديدية الانطلاقية التي ترعاها وتدعمها وتشرف عليها الدولة؟

متى ينتهي عن سيءٍ من أتى به لعرقلة مسيرة التنوير في هذا الوطن؟!

الجواب: لن ينتهي العابثون أبداً، إلا إذا ضربت الجهات المختصة على أيديهم بعصيّ من حديد.. لا بد من ردعهم وزجرهم بقوة النظام وسلطة القانون، فقد استفحل خطرهم كثيراً، وأصبح الدين لعبةً بأيديهم، وكثر ضحاياهم من العامة الدهماء والرعاع، الذين عاثوا في الأرض فساداً وتخريباً بسبب الفتاوى والبيانات والخطابات والكلمات والكتابات الفوضوية العجيبة، التي تحرضهم على التدخل ـ دون استئذان أحدٍ ـ في كلِّ المناشط والمشاريع والأعمال الحداثية التطويرية العصرية، التي تتعارض مع فكرهم المتزمت الكئيب، الذي لا يعرف إلا الدعوة إلى البكاء والموت والتخلف والتقهقر.

ولو أردتُ استعراض وحصر الجهود التنويرية التقدمية التي يقوم بها ملك النهضة، لاحتجت إلى آلاف الصفحات، فلقد بدأت تظهر نتائج أعماله التقدميّة الرائدة، وبدأ الناس في بلادنا يقطفون

ثمارَ أشجار النهضة الحضارية التي زرعتها يده الكريمة في بساتين الوطن، وقد اخترتُ من تلك الجهود بعض النماذج التي أسعدتني أكثر من غيرها، وهذا لا يستلزم بالضرورة أنها الأهم في نظر الجميع، ولا يستلزم أن غيرها من أعماله الكثيرة في هذا الشأن أقلّ أهمية، ولا يستلزم أيضاً وجود رابطٍ خاصٍ بها، يربطها ببعضها دون غيرها، أو يخرج ما سواها من أعماله الجليلة الأخرى. وإليكم الأمثلة التي اخترتها مزهواً بها:

1 ـ فتح باب حوارات الأديان والثقافات والحضارات، فقد أدرك مليكنا خطورة تصاعد ظاهرة التعصّب الأعمى على الأصعدة كافة، فعمل الكثير لإخماد نيرانها المندلعة، ونحن سعداء بما قام به في هذا الصدد، ونقف معه قلباً وقالباً؛ لأن الحوارات المنظمة ـ في رأيي ـ قادرةٌ ـ إذا توسّعت وزادت ـ على وأدِ جميع أشكال العصبيات المقيتة، كالتعصب الديني والعرقي والقبلي والمذهبي والفكري والجنسي والرياضي والطبقي، وغيرها من العصبيات التي تغزو العالم اليوم بصورةٍ لا مثيل لها في سالف الأزمان. إنها تنتشر اليوم في كلِّ مكانٍ انتشار النار في الهشيم، وعلى رأس تلك الأماكن شرقنا الأوسط عامةً، وخليجنا العربي خاصةً، الذي يحظى بنصيب الأسد من استفحال تلك العصبيات والتعصبات للأسف الشديد.

لقد كان التعصّب وما زال الخالق الأول للصدامات السلبية الضارة بين البشر، ولذلك دعا الملك ـ حفظه الله ـ إلى

الحوار الإيجابي النافع، الذي يساهم في قتل التعصب وترسيخ التسامح، وتحقيق مفهوم الأخوة الإنسانية، ونشر السلام في الأرض، وأقام لذلك المؤتمرات والمراكز والنشاطات العديدة.

2 ـ تحويل قضايا الإعلاميين والمثقفين إلى وزارة الثقافة والإعلام، بصفتها الجهة المسؤولة عن هذا المجال، بدلاً من تحويلها للقضاء الشرعي المشغول بما هو أهم وأصعب من القضايا الجنائية والحقوقية وغيرها، وهذه خطوةٌ مهمةٌ جريئةٌ، أعادت الأمور إلى نصابها. فقد صدر الأمر الملكي رقم 14947 وتاريخ 7 / 11 / 1430هـ، بعدم نظر المحاكم الشرعية في أيَّة قضيةٍ من القضايا ذات الطابع الإعلامي أو الثقافي، وقد شمل الأمر الصريحُ عمومَ مصادر المادة الثقافية والإعلامية، وكذلك المواد الثقافية والإعلامية الإلكترونية أيضاً، كما أكدَّ ذلك وزير العدل أكثر من مرةٍ في أكثر من وسيلةٍ إعلاميةٍ، بل أشار الوزير أيضاً إلى عدم نفاذ أي حكمٍ يصدر من المحاكم الشرعية في المخالفات الصحفية، واعتبارٍ ما صدر من أحكامٍ لاغياً في هذه القضايا أياً كان مصدرها، بناءً على ذلك القرار الملكي الجميل.

3 ـ ابتعاث أعدادٍ كبيرةٍ من الطلاب والطالبات السعوديين إلى الخارج، وقد قام برنامج الابتعاث الذي يحمل اسم خادم الحرمين بوضع استراتيجيةٍ دقيقةٍ تبشر بنتائج عظيمةٍ، تتضح

ملامحها من خلال النقاط المقتضبة الرائعة التي وضعها مسؤولو البرنامج، حيث إنهم وضعوا هدفاً رئيساً للمشروع هو: إعداد أجيالٍ متميزةٍ لمجتمعٍ معرفيٍّ مبنيٍّ على اقتصاد المعرفة، ثم وضّحوا آلية تحقيق ذلك الهدف الأساسي، من خلال خطواتٍ تفصيليةٍ جميلةٍ هي:

أ ـ ابتعاث الكفاءات السعودية المؤهلة للدراسة في أفضل الجامعات في مختلف دول العالم.

ب ـ العمل على إيجاد مستوى عالٍ من المعايير الأكاديمية والمهنية من خلال برنامج الابتعاث.

ج ـ تبادل الخبرات العلمية والتربوية والثقافية مع مختلف دول العالم.

د ـ بناء كوادر سعوديةٍ مؤهلةٍ ومحترفةٍ في بيئة العمل.

هـ ـ رفع مستوى الاحترافية المهنية وتطويرها لدى الكوادر السعودية.

كما أنهم اختصروا رسالة البرنامج في سطرين جميلين، فقالوا: إعداد الموارد البشرية السعودية، وتأهيلها بشكلٍ فاعلٍ؛ لتصبح منافساً عالمياً في سوق العمل ومجالات البحث العلمي، ورافداً مهماً في دعم الجامعات السعودية والقطاعين الحكومي والأهلي، بالكفاءات المتميزة.

4 ـ زيادة استقطاب واستثمار الكفاءات العالمية من ذوي العلم

الواسع والمعرفة والخبرة المتميزتين، من البارزين وأصحاب العقول الفذة في الدول الأخرى، في المجالات التي لم تتمكن الجامعات من سدِّ احتياجاتها بالسعوديين، وهذه خطوةٌ هامةٌ أولاها الملك اهتماماً كبيراً، ليتعرف طلابنا على ما لدى الآخرين من المفيد النافع في كثيرٍ من التخصصات، وأنا من أشدِّ المؤمنين بأن التنويع في اختيار جنسيات أساتذة الجامعات مهمٌ لكسر بوتقة الانغلاق الفكري والمعرفي، الناتج عن انتماء غالب أعضاء هيئات التدريس في جامعاتنا وكلياتنا إلى أيديولوجياتٍ منغلقةٍ متقاربةٍ، بل متطابقة إلى حدٍّ كبيرٍ في كثير من الأحيان!!

5 ـ إنشاء جامعة الملك عبد الله للعلوم والتقنية (كاوست)، التي لن يستطيع أحدٌ وصفها أو الحديث عنها بشكل أجمل وأدقّ من وصف مؤسسها، حيث أسهب الملك عبدالله في الحديث عنها في رسالته الطويلة الخالدة، التي أرسلها للعالم إبّان تدشينها، وقد اخترت منها أبرز ما جاء فيها حيث يقول وفقه الله: «ورغبة مني في إحياء ونشر فضيلة العلم العظيمة التي ميزت العالمَين العربي والإسلامي في العصور الأولى، فقد رأيت أن أؤسس جامعة الملك عبد الله للعلوم والتقنية على ساحل البحر الأحمر في المملكة العربية السعودية، وستمثل الجامعة، باعتبارها «بيتاً جديداً للحكمة»، منارةً للسلام والأمل والوفاق، وستعمل لخدمة أبناء المملكة ولنفع جميع شعوب العالم، عملاً بأحكام ديننا الحنيف، حيث يبين لنا

القرآن العظيم أن الله تعالى خلق بني آدم من أجل أن يتعارفوا ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾.

وإنني أرغب أن تصبح هذه الجامعة الجديدة واحدةً من مؤسسات العالم الكبرى للبحوث؛ وأن تُعَلّم أجيال المستقبل من العلماء والمهندسين والتقنيين وتدربهم، وأن تعزز المشاركة والتعاون مع غيرها من جامعات البحوث الكبرى ومؤسسات القطاع الخاص على أساس الجدارة والتميز. وسيكون من الأهداف الأساسية للجامعة تنمية وحماية حرية البحث والفكر والحوار في مجال العمل العلمي.

إن هدفنا هو إيجاد نموذجٍ دائم للتعليم الراقي والبحث العلمي المتقدم، كما ستكون الجامعة مكاناً يلقى فيه الزوار من داخل المملكة وخارجها كلَّ ترحيب. ونحن إذ نوفر أساساً متيناً لكل جوانب الحياة والعمل في الجامعة، فإننا نهدف بذلك إلى ضمان نجاحها في تعزيز التنمية الاقتصادية والرفاهية الاجتماعية لشعب المملكة ولشعوب العالم كله». انتهى المنتقى من رسالته.

6 ـ إنشاء مدينة الملك عبدالله في رابغ، حيث بلغت تكلفة مشروع المدينة (300 مليار ريال سعودي)، وتنفذه شركة إعمار المدينة الاقتصادية، وتنقسم المدينة إلى ستة أقسام، يحقق كلٌّ قسمٍ منها هدفاً من أهداف بناء المدينة، وهي: الميناء،

والمجمع الصناعي، والجزيرة المالية، والمرافق الشاطئية، والأحياء السكنية التي تضم مركز المدينة المشتمل على منشآتٍ وتسهيلاتٍ متعددةٍ ومراكز تجاريةٍ منوعةٍ؛ بالإضافة إلى الكورنيش البحري، والمنطقة التعليمية التي تحتوي على مدارس لجميع المراحل التعليمية، إلى جانب الكليات والمعاهد ومراكز الأبحاث المجهزة بالكامل على أعلى طراز.

7 ـ تعزيز مكانة المرأة ودورها الاجتماعي في كثيرٍ من المجالات، وسأكتفي هنا بإيراد مثالين حديثين، يغنيان عن كثيرٍ من الكلام؛ لأن الأول كان حدثاً كبيراً فرح به جميع أنصار إنصاف المرأة وتحريرها من واقعها المؤلم في بلادنا، فقد أعلن الملك في يوم الأحد المشهود الموافق 25 سبتمبر 2011م، أعلن أنه أصبح بمقدور المرأة السعودية أن تكون عضواً في مجلس الشورى في بلادها، وأن تترشح للانتخابات البلدية، ولها الحق في المشاركة في الترشيح أيضاً، حيث قال ما هذا نصّه: «قررنا مشاركة المرأة في مجلس الشورى عضواً، اعتباراً من الدورة القادمة وفق الضوابط الشرعية، ويحق لها أن ترشّح نفسها لعضوية المجالس البلدية من الدورة القادمة، ولها الحق في المشاركة في ترشيح المرشحين» في إشارة إلى حق الاقتراع.

أما المثال الثاني، فهو تعيين الأستاذة نورة الفايز في منصب مساعدة وزير، لتكون بذلك أول امرأةٍ سعوديةٍ تحصل على

هذا المنصب الرفيع، وما زلنا ننتظر ونترقب مزيداً من القرارات الخاصة بالمرأة، التي تلوح بوادر صدورها في الأفق، ومن أهمها السماح لها بقيادة سيارتها نظراً لحاجة كثيرٍ من نساء الوطن إلى ذلك، فقد بلغت معاناتهن مع السائقين وسيارات الأجرة حدّاً لا يمكن السكوت عنه إلى الأبد.

8 ـ رفعُ سقف حرية الثقافة والإبداع، ومن أصدق الأمثلة على ذلك ما نراه في معرض الرياض للكتاب والندوات المصاحبة له في السنوات الأخيرة، وما نراه من الفعاليات الجميلة المتنوعة في المهرجان الوطني للتراث والثقافة بالجنادرية، فقد ظهر جلياً في هذين الحدثين السنويين حرص حكومتنا الرشيدة على الارتقاء بمستوى الثقافة والفكر والمعرفة والإبداع، وتحرير هذا المجال من كثيرٍ من القيود الرجعية، التي كانت مسيطرةً عليه طيلة عقودٍ طويلةٍ سابقة، كالتضييق على المؤلفين مثلاً، ومنع الكثير من الكتب من التداول في المعرض، وكالمبالغة في منع الموسيقى في كثيرٍ من الاحتفالات والمهرجانات الثقافية قديماً، بصورةٍ متكلفةٍ ممجوجة. إن التحسّن في ذلك واضحٌ جداً، ويدركه ـ بكل سهولة ـ من حضر معارض الكتب وغيرها من المناشط الثقافية في السنوات الأخيرة، لاسيما إذا قارنها بواقعها قبل تولي هذا الملك الإنسان مقاليد الحكم.

9 ـ تقييد الفتوى وتقنينها، بعد أن كانت الفوضى العارمة مسيطرةً

على ساحة الإفتاء السعودية، فقد أصدر خادم الحرمين أمراً ملكياً مفصّلاً في ذلك، برقم 13876 ـ ب وتاريخ 2 ـ 9 ـ 1431هـ، اشتمل على نقاطٍ طويلةٍ رائعةٍ، أنصح المهتمين بالرجوع لها والاطلاع عليها كاملةً، ولعل من أبرز ما جاء في ذلك الأمر: قصر الفتوى على أعضاء هيئة كبار العلماء، ومن يأذن لهم الملك بذلك فقط.. وأحبُّ أن أشير هنا إلى أن بعض سفهاء الوعاظ ما زالوا يعبثون بالفتاوى دون رادعٍ ولا زاجرٍ، متجاهلين هذا القرار الملكي الحكيم الصريح، فأتمنى أن يُضرب على أيديهم بعصيّ من حديدٍ، فقد استفحل خطرهم كثيراً، وأصبح الدين لعبةً بأيديهم، وكثر ضحاياهم من العوّام والجهلة، الذين عاثوا في الأرض فساداً بسبب تلك الفتاوى الفوضوية العجيبة.

ثم ماذا بعد هذا كله؟

ثم ماذا بعد هذه الجهود الملكية الضخمة في هذا المجال؟!

الجواب هو: وقفتْ خفافيش الظلام في طريق مسيرة التنوير الملكية الكبرى، ونجحت معاولها الهدامة للأسف الشديد في تقويض بعض الأعمال الحرة التنموية الرائدة.. وقفت بالمرصاد لكل خطوات التنوير والانفتاح والارتقاء بالفكر والثقافة في بلادنا.. وقفت كأنها بنيانٌ أسود مرصوصٌ يشد بعضه بعضاً بكل جهلٍ وحماقةٍ.. وقفوا ـ أصلح الله حالهم ـ كالأشواك في حلوق مشاريع ازدهار الوطن ورفعته ونجاحه وعلوه وانتصاره وانتعاشه. ولابد من

تدخلٍ حكوميٍّ عاجلٍ يدرس جيداً أسباب انتشار فكر الوصاية الإقصائي المتشدد المتحجر في المجتمع، ويبحث عن الحلول الناجعة والأدوية الفعالة للقضاء على هذا الداء العضال، الذي يفتك بجسد الوطن ليلاً ونهاراً.

لا يكفي أن نقول: إن مليكنا المفدّى مليكٌ تنويريٌّ تقدميّ فحسب، بل لابد أن نقول: إن التنوير هو الملك عبدالله، والملك عبدالله هو شعلة النور التي أضاءت ما بين السماء والأرض في هذا الوطن العزيز على قلوبنا جميعاً، فخلوا بيننا وبين نوره أيها الظلاميون.

التغيُّـرات الفكـريَّـة
في المجتمع السعودي

يعيش المجتمع السعودي في هذه المرحلة ـ من وجهة نظري ـ مرحلة مخاضٍ كبيرةٍ، تسبق ولادةً جديدةً، لوجهٍ حديثٍ، تشترك في رسم ملامحه مجموعةٌ من القوى الثقافية المختلفة المرتكزات والاستراتيجيات والأهداف.

كانت «الحداثة» في السابق مصطلحاً لا يتحدّث عنه إلا القلائل، وحُلماً تشتاق إلى تحقيقه وتطبيقه نفوسُ فئةٍ نخبويةٍ معينةٍ من أبناء الوطن الذين تنوَّرت عقولُهم مبكراً؛ فتاقوا إلى معانقتها، وإعتاق مجتمعهم بها من قيود التخلف؛ ليواكب بعد تحريره جماليات العصر، ويلحق بركب التقدّم والتطوّر والنهضة الإنسانية الحديثة والإبداع البشري المتصاعد.

ولكن المعادلة اختلفت اليوم في ظلِّ هذه الثورة التقنية الشاملة، التي أدارت باختراعاتها ووسائل اتصالاتها الرهيبة (رحى التنوير) والتغيير، في كثيرٍ من المجتمعات المنغلقة المظلمة سابقاً.

أصبحت هناك اليوم قوةٌ جديدةٌ حقيقيةٌ «مدركةٌ وملموسةٌ» لا يمكن تجاهلها أو إنكارها، يشعر بها كلُّ متأملٍ منصفٍ لواقعنا، وهي ـ في نظري ـ قوةٌ ديناميكيةٌ رائعةٌ تسير بالشكل الصحيح في الاتجاه الصحيح، وفي الوقت المناسب، وبتناغمٍ جميلٍ محمودٍ تشترك في تكوين ألحانه أصواتٌ مميزةٌ حرّةٌ، تتكاثر يوماً بعد يوم.. هي قوةٌ أراها قادرةً على تقويض الأسس التقليدية القديمة التي ظلَّ الناسُ أسرى لها دون وعيٍ كاملٍ حقيقيٍّ بحقيقتها، ومَواطنِ الضعف والخلل والقصورِ فيها، ودون تعمُّق فكريٍّ سليم ـ غالباً ـ في دهاليزها الخفية، التي لا تَظْهر إشكالاتُها إلا لمن سَبَرَ أغوارها بتحليلٍ عميقٍ، وتفكيكٍ وتشذيبٍ دقيقين، لتراكيبها المعقدة المتداخلة، بهدوءٍ كاملٍ، وتركيزٍ شديدٍ، وجدّيّةٍ تامةٍ، وطول نفس.

إن هذه القوة التي تحمل لواءها اليوم مجموعةٌ من أبناء وبنات الوطن تخوض معركةً فكريةً ثقافيةً حامية الوطيس، مع مجموعاتٍ من القوى الأخرى، وأظنُّ أن (العراك الفكري) والتفاعل الإيجابي بين حملة القناعات المتعارضة لا يفسد للود قضيةً بين أبناء المجتمع الواحد، باستثناء نزرٍ قليلٍ من غير الأسوياء الذين يضعون كل من يخالفهم الرأي في منزلة عدوٍّ لدود.

لقد زرعت تلك المجموعة الصامدة الأبيّة في بساتين مجتمعنا أشجاراً جديدةً ومتنوعةً، وواظبت على سقايتها ورعايتها والاهتمام بتقليمها وتسميد تربتها، حتى بدأت تلك الأشجار تؤتي أكلها بشكلٍ

جميلٍ ظاهرٍ، لمسْته بنفسي في السنوات الأخيرة، وأعتقد أن كثيراً من الناس غيري لمسوه أيضاً على أرض واقعنا المجتمعي.

سأضرب لكم مثالاً، فقد كنتُ أتحرج سابقاً من مصادمة بعض المقرّبين منّي ببعض القناعات التي كنت أظن مخطئاً أنها ستزعجهم، بل وصل الحال إلى أبعد من ذلك؛ فقد ظننتُ أني قد أتعرض لردودِ أفعالٍ كبيرةٍ ربما تسبب لي ضرراً أو تعباً أو مشاكل أنا في غنى عنها.

بدأتُ مناقشة هذا بحذرٍ، ومحاورة ذاك بهدوءٍ، حتى اكتشفتُ بعد مراسٍ طويلٍ ومتدرجٍ أن كثيراً منهم يتّفقُ معي في بعض ما كنت أخشى من الحديث معه حوله، وأن بعضهم يتّفق معي في غالب قناعاتي الخاصة، التي ظلّت مستترةً وممنوعةً من الخروج لسنواتٍ طويلةٍ، بل وجدتُ بعضاً من ذلك البعض يتفق معي تماماً في كل ما أقول وأطرح وأشرح!!

مشكلتنا كتم القناعات دون مبررٍ مقبولٍ، ومجاملة الآخرين خشيةً من ردود أفعالهم، التي قد لا تكون كما نتوقعها في كثيرٍ من الأحيان.

ما أريد أن أصل إليه هو أن ملامح وجه المجتمع السعودي الجديد، الذي سيولد قريباً، لن تكون أبداً كما يريدها ويتمناها التقليديون، بل ستشترك في تكوينه ورسم خطوط جماله مجموعةٌ من التوجهات المتباينة المتفاوتة، في مختلف المجالات، وسيكون لتيارِ المستفيقين من سبات الأوهام والأحلام نصيبُ الأسدِ من خَلْق

تلك الملامح.. إننا سنشيّع عند ولادة مجتمعنا الحديث القادم ـ رغم أنوف الرافضين ـ جثمانَ مجتمعنا القديم الذي أراه اليوم كرجلٍ مسنٍ عاجزٍ يرقد على فراش موته منتظراً سكراته وساعة الرحيل، بعد أن عاثت الأمراضُ الفتاكة في جسده المنهك المستسلم الضعيف.

فأهلاً أهلاً يا مولودنا الجديد (القادم) المفعم بأملِ الحياة الطبيعية السويّة التي يتعايش على أرضها الجميع، بكل حبٍ واحترامٍ وسلامٍ ووئامٍ وبهجةٍ ونشاطٍ، مهما اختلفت توجهاتهم ومذاهبهم وأعراقهم وأعرافهم ورؤاهم وتقاليدهم، ووداعاً أيها الوصي القديم الذي عاش وسيموت متكبراً متغطرساً مغروراً، مُصراً على احتكار كل شيءٍ، وعلى الزعم بمعرفة كل شيءٍ، والجزم بصحة رأيه في كل شيءٍ، وعلى ممارسة أقسى وأفظع أشكال استعمار عقول أبناء الوطن، وفرض الوصاية عليها.

آفة الذهّن الجبنُ

عندما يختلف عاقلان سويان جادّان حول موضوعٍ معينٍ، فإن الطبيعي هو أن يسمح كلُّ واحدٍ منهما للآخر بطرح ما لديه من الحجج والأدلة والبراهين، التي يراها مؤيدةً لوجهة نظره وداعمةً لها، ومثبتةً ـ في الوقت نفسه ـ خطأ رأي خصمه.

ثم يردُّ كلُّ واحدٍ منهما على ما يورده محاوره من إثباتاتٍ، بردودٍ يراها كفيلةً بدحض كلام مخالفه، وإبطال ما أورده من البينات، أو إضعاف موقفه وبيان جوانب الخلل والقصور في رأيه.

وتستمر المناظرة بينهما بهذه الطريقة، ويستمر الحوار ماتعاً نافعاً دون قيودٍ أو حدودٍ أو عوائق أو حيلٍ أو مراوغاتٍ، حتى ينتهيان.

هذا هو السائد الغالب عند الأسوياء؛ ولكن أمر بعض المتحاورين عجيبٌ وشاذٌ عن ذلك السائد المألوف في الحوار، فهؤلاء رغم أن الكثيرين منهم يمتلكون أدوات الحوار الجيّد، ولا

يقلّون عن غيرهم في قدراتهم العقلية، ولا في سعة الإطلاع والمعرفة، إلا أنهم يضعون أمامهم وأمام محاوريهم خطوطاً حمراء يجب أن لا يتجاوزها النقاش والتناظر الفكري أبداً، مهما كانت الأسباب والمبررات!

إنهم خائفون من الآخر.. خائفون من فكره.. مذعورون منه.. يخشونه ويخشون ما لديه. إنهم لذلك يتوقفون عند حدودهم وقيودهم وأسوجتهم التي طوّقوا بها عقولهم.. لعلمهم أن الاسترسال مع الآخر في الحوار دون حدودٍ، قد يمكّنه من تمزيق ثياب قناعاتهم الرثّة بسكاكين الحجج الدامغة، وهذا ما يقلقهم. إنهم ـ باختصار ـ يخشون اكتشاف خطأ ما هم فيه.

لقد أزعجني هؤلاء شخصياً أكثر من مرةٍ، فبعد أن يأخذ الواحد منهم من وقته ووقتي الكثير، يتوقف ويعلن إغلاق باب الحوار في موضوعٍ معينٍ، سواءً كان ذلك الحوار مباشراً في مجلسٍ أو مكانٍ معينٍ، أو كان كتابةً إنترنتيةً في موقعٍ الكتروني أو صفحة دردشةٍ خاصةٍ، أو عبر الماسنجر أو غير ذلك.

يعلن التوقف دون سبب، بعد أن حمي الوطيس وترابطت الأفكار وزادت المتعة الحوارية، وعندما تُظهر له انزعاجك من تصرفه أو دهشتك من فعله، يردُّ عليك بأنه لا يريد الاستمرار في النقاش، لأن الحديث الشيّق الذي دار بينكما وصل إلى منعطفٍ خطرٍ، واقترب من تجاوز الخطوط الحمراء التي لا يريد تجاوزها!!

قلتُ لأحدهم قبل أيام: إذا كنتَ مشغولاً الآن أو لديك ارتباطٌ معينٌ، فبإمكانك الانصراف وتحديد موعدٍ آخر نستكمل فيه هذا الحديث، وكانت المفاجأة أنه رد عليَّ بقوله: لا لا أبداً، أنا متفرِّغٌ تماماً الآن، وبإمكانك الانتقال إلى أيِّ موضوعٍ آخر، ولكني قد أعلن توقفي عن إكمال الحديث معك في أيّة نقطةٍ، إذا شعرتُ بأنه يجب عليَّ التوقف، فهذه طريقتي التي تعوّدت عليها.. ليس في الحوار وحده، بل حتى في القراءة وغيرها من وسائل المعرفة. هناك حدودٌ لا أستطيع تجاوزها، ولا التعمّق في النقاش حولها إطلاقاً!!

إن الاستسلام والخضوع للأصوات العالية، أو المسيطرة أو المألوفة الموروثة، ورفض التبحّر في أي موضوعٍ يعارضها، يجعل المستسلم ذليلاً خانعاً مُعطَّل القدرات الذهنية.. إنه يجعله يسعى جاهداً بكل سذاجةٍ إلى إخراس كلِّ صوتٍ يعارض تلك الأصوات أو يحاول انتقادها، طلباً للسلامة والأمان وراحة البال، وغيرها من مطالب جبناء الفكر والثقافة.

لن أستعرض الأسباب التي تدفع جبناء المعرفة للتوقف عند حدٍ معينٍ، فهذا شأنهم الخاص بهم، الذي قد لا يرونه جبناً من منظورهم الذي أحترمه وأقدره رغم غرابته؛ ولكني أتمنى منهم عدم إشغال الآخرين وإضاعة أوقاتهم في النقاشات أو المناظرات، ما لم تكن لدى الواحد منهم الثقة الكاملة في نفسه وفي أفكاره وقناعاته، والثقة ـ قبل ذلك ـ في أنه بلغ مرحلةً من النضج تجعله قادراً على الانصياع للحجة الأقوى، والتنازل والتراجع عن أيِّ رأيٍ أو موقفٍ

فكريٌّ يتّضح له من خلال حواره مع خصومه بطلانه، أو هشاشته وضعفه بالأدلة والبراهين.

من النادر أن يمرّ عليَّ أسبوعٌ في مواقع التواصل الاجتماعي ـ مثلاً ـ دون أن يصلني طلبُ حوارٍ أو مناظرةٍ، وتكون غالب تلك الطلبات مشحونةً بجرعاتٍ عاليةٍ من الحماس المدهش، الذي يوحي في البداية ـ أحياناً ـ بجديّة صاحبه، ورغبته الأكيدة في النقاش الهادف إلى معرفة الصواب وملامسة الحقيقة المقنعة في موضوع معين؛ ولكن أصحابها لا يستمرون في ذلك ويتحولون عنه بسرعة، إما بالشخصنة التي تخرج عن حدود الأدب والاحترام المفترض بين المتحاورين العقلاء، أو بإعلان الانسحاب والتوقف بشكلٍ مباشر، أو بشكلٍ تكتيكي لا مباشر؛ أعني التهرب وخلط الأوراق والقفز بطريقةٍ فوضويةٍ إلى مواضيع متفرقةٍ لا علاقة لها بمحور النزاع لا من قريبٍ ولا من بعيدٍ، أو بعيدة عنه قليلاً أو كثيراً.

ولذلك أصبح من الصعب على الشخص قبول أيَّةِ دعوةٍ للنقاش أو الحوار في الإنترنت، أو في غيره من القنوات والوسائل الإعلامية، قبل أن يتأكد من حقيقة الداعي وأهدافه، ومستوياته المعرفية والثقافية ونضجه العقلي إن كان هو المناظِر، ونضجه المهني وقدرته على الحياد الحقيقي إن كان معدّاً أو مشرفاً أو مقدماً أو مذيعاً أو راعياً لذلك الحوار...؛ لأننا ببساطة لا نستطيع ـ في ظل هذه الفوضى الثقافية العارمة ـ التنبؤ بما سيحدث في تلك الحوارات، وليس هناك ما يضمن للمدعوّين خلوها من تلك الأساليب الطفوليّة التي يمارسها العاجزون والمفلسون!.

نشوة الكاتب وفيضان قلمه

قد تمرُّ على الشاعر أيامٌ أو أسابيع أو شهورٌ، بل سنواتٌ أحياناً، دون أن تهمس شفتاه ببيتٍ شعريٍّ واحدٍ، وتبقى أبواب قريحته مؤصدةً أمامه رغم اجتهاده في فتحها، حتى يأذن القدر بكسر أرتاجها لسببٍ أو أسبابٍ ظاهرةٍ أو خفية. وكذلك الحال مع النثر؛ فقد يشعر الكاتب في أوقاتٍ معينةٍ ـ تطول أو تقصر ـ باختلاط حبال الأفكار، وتشوش الذهن، وانعدام الرغبة في الكتابة، وغياب القدرة على نسج الجيد من الأسطر، بل قد تموت تلك القدرة نهائياً في بعض الأحوال لظروفٍ معينةٍ.

إلا أن صاحب القلم لا بد أن يشعر ـ في المقابل ـ بأوقات إبداعٍ أخرى رائعةٍ تنتابه بين الحين والآخر. إنها تغزوه على حين غرة.. إنها تداهمه.. إنها فيناتٌ ذهبيةٌ نفيسةٌ يحس فيها الكاتب بصفاءٍ ذهني، ونشوةٍ فكريةٍ روحية يعقبها أو ينتج عنها فيضانٌ غزيرٌ وتدفقٌ طاغٍ لمداد القلم. عندما تهطل أمطار تلك النشوة تشرع أمام اليراع أبواب الخيال والتعبير، والربط والتحليل، واستحضار

المعلومات. إنني أشعر بذلك الآن.. أحس بذلك العنفوان الذهني النفسي في هذه اللحظات؛ ولذلك اخترت هذا الموضوع دون غيره. إن هذه الحالة التي أعيشها وأنا أكتب هذه الأسطر تمر بي من حينٍ إلى آخر، فقد استيقظت صباح اليوم على صوت جرس الرغبة العارمة في الكتابة، ثم انطلق قلمي راكضاً على صحائفي، فأنهيت كتابة عددٍ من صفحات هذا الكتاب، بعد عزوفٍ طويلٍ عن الكتابة بلا سببٍ ظاهر!

المهم في الموضوع هو أنني حاولت سابقاً وما زلت أحاول باستمرار فك طلاسم هذا الشعور، وفَهم هذه الظاهرة المستعصية، وتفسير لغز هذه الأوقات الثمينة النادرة، التي أعتقد أنه يجب على كل صاحب قلمٍ استغلالها جيداً، وترك جميع أعماله الأخرى ـ قدر الاستطاعة ـ عند شعوره بنزول وحي الأفكار على مداركه وهطول حبر قلمه على دفتره.

سألتُ بعض الزملاء الكتاب عن هذا الأمر، فأجابني غالبهم بأنهم يمرون بتلك الأوقات الساحرة التي تقتحم حماهم دون سابق إنذار أو مقدمات، فتتضاعف فيها قدراتهم على الإبداع الكتابي، وأظن أن خلف هذه الحالات الجميلة التي يشعر بها الكتاب أسراراً دفينةً وأسباباً خفيةً، وأن لها نواميس غامضةً متواريةً، كغيرها من الأمور الكثيرة، التي نلمسها في حياتنا، ونتوقع أن لها قوانين خاصة، نعجز أحياناً عن اكتشافها وتفسيرها.

لن أطيل الحديث عن العوامل المجهولة الخفية المحركة للقلم

والمحفزة للكاتب؛ لأنها متواريةٌ عني، وقد تعددت وتضاربت أقوال الفلاسفة وعلماء النفس وغيرهم من الأدباء والحكماء حولها، عند خوضهم في أسرار النفس البشرية ومحاولة اكتشاف وفَهم عجائبها!

أما العوامل الظاهرة لي، التي أوصي الجميع بالتركيز عليها والاهتمام بها، ومحاولة ربطها ببعضها لتنتعش أقلامهم وتتفجر قنابل طاقاتهم الكتابية فمنها: النوم الكافي (ليلاً)، وهذا مهمٌ جداً؛ فقد لاحظت أن نوم النهار لا يشبع ولا يريح مهما طال، وأن تلك الساعات الجوهرية الثمينة التي تزيد فيها الرغبة والقدرة على الكتابة تحل عليَّ غالباً في ساعات الصباح الأولى، عندما أنام مبكراً.

ومنها الإفطار الصحي المنوع الخفيف (قليل السكريات والدهون)، فقد ظهر لي جلياً أن قلة السكريات والدهون في وجبة الإفطار من أهم وسائل تفتق الذهن وتدفق حبر القلم في الصباح.

ومنها المشي قليلاً بعد الإفطار وقبل البدء في الكتابة، وحبذا لو قام الكاتب بالاستحمام بالماء الذي يميل إلى البرودة بعد الانتهاء من المشي وقبل استلام قلمه، وحبذا أيضاً لو تم توفير نوع من مشروبات الاسترخاء الروحي، كبعض الأعشاب مثلاً أو غير ذلك، كما أن الإقلال من التدخين مهمٌ في السويعات التي تسبق الانطلاق في التأليف، أو البحث أو النظم إن كان الكاتب مدخناً؛ فهناك ـ فيما يبدو لي ـ ارتباطٌ وثيقٌ بين الإحجام عن الكتابة وزيادة مستويات النيكوتين في الدم!

والخلاصة باختصارٍ شديدٍ: جرّب أيها الكاتب أن تنام بعد العشاء مباشرة، وأن تستيقظ مع الفجر، ثم تناول إفطاراً صحياً خفيفاً منوعاً، ثم قم بحركةٍ بسيطةٍ (كالمشي عشر دقائق مثلاً)، ثم الاستحمام بالماء البارد، ثم استلم قلمك وأوراقك وأنت ترتشف مشروباً مرخياً، وانظر إلى النتيجة؛ مع ضرورة ملاحظة أن الوصول إلى تلك النشوة النفسية العقلية المنشودة قد لا يتحقق في كل مرة تقوم فيها بهذه الأمور؛ لوجود أسرارٍ خفيةٍ أخرى كما أسلفنا، فعليك تكرار الأمر، وبذل الجهد وتلمس كل سببٍ يوصلك إلى تلك اللحظات الفريدة، وتأكد أن ما سينتجه قلمك فيها سيكون كافياً لتعويض كل تعبك في المرات والمحاولات السابقة، التي تعبت فيها طلباً للوصول إلى هذه النشوة العالية، التي لن تتحقق إلا إذا صادف حدوث الأسباب المجهولة قيامك بالوسائل المعلومة المعينة على الإبداع.

إن الموضوع كبيرٌ جداً، ويستحق الاهتمام قطعاً؛ لأن صاحب القلم قد يستطيع ـ كما قد حدث ـ كتابة قصيدةٍ كاملةٍ أو إنهاء تأليف كتيبٍ جاهزٍ للطبع، أو الانتهاء من تأليف فصلٍ طويلٍ أو بابٍ كاملٍ من كتاب، في جلسة واحدة من تلك الجلسات الجميلة المبهرة، التي لا يزيد عمرها على ساعاتٍ معدودةٍ من الزمن لا تقدر بثمن.

أوصي جميع الكتاب والأدباء عامةً، وكتاب المقالات الصحفية خاصةً، ببذل كل ما يستطيعون للوصول إلى تلك الحالة العقلية النفسية السامية العالية؛ لأن ذلك سيجعلهم أكثر عطاءً، وسيجعل سلالهم ممتلئةً دائماً بما لذّ وطاب من المقالات ثقيلة الوزن، وهذا

ما يمكنهم من التجاوب السريع مع أيَّةِ وسيلةٍ إعلاميةٍ تستكتبهم، وهنا يكمن الظفر والنصر.

وأحب أن أشير أيضاً إلى نقطةٍ مهمةٍ في هذا السياق، فقد كنت دائماً أضع جداول عملٍ لملء سلة كتاباتي بين الحين والآخر، ولكن الخطأ الذي كنت أرتكبه باستمرارٍ هو أنني كنت أبدأ بالمواضيع السهلة أولاً، وأترك الصعبة منها في نهاية تلك الجداول، كسلاً وتقاعساً كعادة أمثالي من المزاجيين المتثاقلين.

كنت أظن أن هذا هو الأسهل على الجسد، والأخف على النفس. ولكني اكتشفت ـ مؤخراً ـ أن هذا ليس صحيحاً، وأن القيام بالأعمال الصعبة، وإنجاز المهام المتعبة في بداية الجدول اليومي أو الأسبوعي أو الشهري، هو الأكثر راحةً وفائدةً.

وهذا لا يخص الكتابة فقط، بل قس عليه البداية بالصعب في كل شيء.

إن الطاقة والانتعاش والحماس والحيوية تكون أكثر في بداية كل عملٍ، وتبدأ بالضعف والتلاشي والتناقص التدريجي كلما قطع العامل شوطاً أكبر في عمله.

ولا أخفيكم أني تندمت على عدم اكتشاف هذه النقطة الدقيقة في بداياتي؛ ولذلك أنصحكم جميعاً بوضع الأعمال السهلة الميسرة في نهاية المطاف عند قيامكم بأي عمل، سواءً كان جسدياً أو ذهنياً؛ ليكون الاسترخاء الناتج عن سهولة الأعمال الأخيرة في النهاية كالجائزة التي تستحقونها نظير ما أنجزتموه من الصعاب الشاقة في البداية.

السرقة بوصفها احتجاجاً

إن السلوكيّات المشينة ـ ومنها السرقة ـ ليست إلا نوعاً من الفقدان والحرمان. إنها ليست إلا اعتراضاً على ذلك.. ليست إلا احتجاجاً على الاحتياج. إنها اعتراضٌ بطريقةٍ منحرفةٍ.

أتفقُ بَادِئَ ذِي بَدْءٍ مع المنادين والمطالبين بضرورة تغليظ العقوبات على المجرمين عامّةً، وأضمُّ صوتي لصوت مَن يطالبُ بسنِّ قوانين أكثر صرامةً لمواجهة «السرقة» تحديداً، نظراً لخطرها الكبير على المجتمع، وأشيدُ بالجهود الأمنيّة والقضائية الكبيرة التي تُبذل للتصدي للعابثين؛ ولكني أريد أن أتحدث عن هذا الموضوع من زاويةٍ أخرى، آملاً أن يُحسن الجميعُ استيعابَ مقصدي ومُرادي بشكلٍ سليم.

تطالعنا وسائلُ إعلامنا بكثيرٍ من الأخبار المتتالية عن قيامِ فِئَاتٍ من المواطنين بارتكاب العديد من الجرائم. ومنها: السرقة، والسلب، والنهب، والاختلاس، ونشل حقائب النساء ومَحافِظ

الرجال، واقتلاع الصرافات الآلية، والسطو ـ المسلَّح أحياناً ـ على المتاجر والبنوك والمنازل والاستراحات والمخيمات.. وسيارات نقل الأموال، وسيارات الشركات والمؤسسات والأفراد، وغير ذلك من صور التعدِّي على الممتلكات الخاصّة والعامة، في مختلف مناطق المملكة. والقاسم المشترك الأعظم لكثير من تلك الجرائم هو أن مرتكبيها ـ في الغالب ـ من الشباب المحتاج العاطل عن العمل.

إن فئةً مِن هؤلاء الشباب الذين وقعوا في براثن الجريمة عامةً والسرقة بشكل أخصّ، يحتاجون إلى التوعية واستنهاض الوازع المتواري في ضمائرهم، ومنح الفرص الوظيفية لهم، وزرع الأمل والطموح في أنفسهم، أكثر من حاجتهم إلى سياط القسوة وسيوف العقاب ورماح الوعيد والتهديد والتنكيل.

إن بعضهم أبناءُ أسرٍ كريمةٍ أرضعتهم ما تعتبره «مكارم أخلاق» مع حليب أمهاتهم منذ الطفولة، وعلى رأسها النزاهة، والأمانة، والاستقامة، والعفّة، والوفاء، وعزة النفس، وكفّ الأذى عن الناس...

إنهم إذا ارتكبوا شيئاً من هذه الجرائم فليس لأنهم يحبون الجريمة أو يبيحونها لأنفسهم، أو يرضون بها كمهنةٍ دائمةٍ في الحياة. وليس لأنهم يكرهون الآخرين، أو يريدون الشرَّ لهم والإضرار بهم. وليس لأنهم يرغبون في إشاعة الفساد في مجتمعهم؛ وإنما يفعلون ذلك ـ أحياناً ـ لأنه لا خيار لهم في ألا

يفعلوا.. أو بعبارة أخرى: لأنهم عجزوا في الحصول على ما يكفي لتلبية احتياجاتهم اليومية الضرورية بالطرق المشروعة!!

كلنا نعلم أن الخليفة عمر بن الخطاب أوقف حدَّ السرقة في عام الرمادة؛ بسبب الفقر المدقع، والحاجة الماسَّة، والجوع الذي انتشر فيه انتشار النار في الهشيم حتى عُرف بعام المجاعة.

أنا لا أبرّرُ لهؤلاء العاطلين جرائمهم، ولا ألتمس لهم الأعذار التي تحثّهم أو تشجعهم على المضي قدماً في دروب العبث والتجاوز والخطأ، ولا أقصدُ من إيراد قصة ابن الخطاب طلبَ العفو، عنهم أو تخفيف العقوبة عليهم، أو فتْحَ الباب أمامهم للقيام بمزيد من تلك السرقات؛ ولكني أريد إيصال رسالةٍ مفادها: وجوبُ التفريق بين المجرم الذي ارتكب جريمته مقتنعاً بها أو مصرّاً عليها، أو ممتهناً مكرراً لها دون حاجةٍ حقيقيةٍ ظاهرةٍ، والمجرم الذي ارتكبها لمرةٍ أو مرتين، كارهاً لها في لحظة ضعفٍ تحت ضغط ظروفٍ قاسيةٍ لا ترحم.

لقد ارتفعت معدلات الجريمة مؤخرًا بشكلٍ ملحوظٍ، ولابدّ من وضع الخطط الجادة لتخليص المجتمع من دوافعها وأسبابها أولاً، ثم النظر ـ بعد ذلك ـ في موضوع زيادة العقوبات وتغليظها والتشديد فيها.

ماذا ننتظر من شابٍ فتكت به مخالبُ العَوَزِ وأنيابُ الفاقة، وهو يعيش في دولة من أغنى دول العالم؟

ماذا ننتظر من شابٍ آخر يثابر ويجتهد في الدراسة والتحصيل،

إلى أن يحصل على الشهادة أو الخبرة أو عليهما معاً، ثم يجد غيره من المقيمين، أو من أبناء المتنفذين من المواطنين في وظائف مرموقةٍ لم يستطع هو الوصول إليها ولا إلى غيرها، رغم جدارته واستحقاقه، وامتلاكه من الشهادات والخبرات ومقوّمات النجاح أكثر مما يمتلكون؟! مع ضرورة التنبيه هنا على أن الوافدين (إخوةٌ لنا) لهم ما لنا وعليهم ما علينا، ومن حقِّ الواحد منهم العمل في أيِّ مكانٍ تَرْجحُ فيه كفّة مؤهلاته أو خبراته على مؤهلات أو خبرات من تقدَّم لذلك العمل من المواطنين. أمّا إذا استوت الكفَّتان، أو رجحت كفةُ المواطن ـ بالخبرة أو بالشهادة أو بغيرهما ـ فلا شك أن جحا أولى بلحم ثوره!.

ماذا ننتظر من رجلٍ بلغ أحفادُه سنَّ الزواج وهو لا يملك مسكناً؟

ماذا ننتظر من فتاةٍ تُمزِّقها سهامُ الحسرةِ والحيرةِ بعد أن أعيتها الحِيَلُ، وأثقلت كاهلَها مصاريفُ التنقّلِ بشهادة تخرّجها ـ الذي مضت عليه سنواتٌ طويلة ـ بين أماكن العمل دون جدوى، وهي تعلم أن الكثير من الفرص الوظيفيّة التي تناسبها وتستحقها بكل جدارةٍ، مشغولةٌ بوافداتٍ أو بمواطناتٍ غير جديراتٍ ولا مستحقاتٍ، حصلن عليها عن طريق «الواسطة»، أو غيرها من الأمور التي يخجل الإنسان من ذكرها؟!

ماذا ننتظر من امرأةٍ لا تجد قوتَ يومها، وهي تقف عاجزةً مذهولةً أمامَ حربٍ ضروسٍ تشنّها ضدّها جهاتٌ ترتدي لباس

الدين؛ لمجرَّد أنها ترغب في دخول السوق للعمل، أو البيع والشراء، طلباً للرزق الحلال بالكسب المباح، وتعففاً عن المسألة، أو هروباً من الرذيلة والجريمة؟

ماذا ننتظر من أفراد مجتمعٍ يشاهدون على أرض واقعه كبارَ لصوصه أحراراً طلقاء، في الوقت الذي تمتلئ فيه السجونُ بصغارِ اللصوصِ الذين قد يقضي الواحدُ منهم سنواتٍ طويلةً في السجن؛ لأنه سرق خروفاً أو ما ماثله في قلَّة قيمته؟!، بل قد تُقْطع يده في بعض القضايا، رغم أنه لم يسرق إلا مبلغاً زهيداً أو شيئاً تافهاً، لا يقارن أبداً بما استحوذ عليه كبارُ السُرَّاق من الفاسدين الكُثُرِ في بلادنا للأسف الشديد، ورغم أنه ـ وهذا هو الأهم ـ لم يسرق إلا القليل، وبدافع الحاجة الماسّة في بعض الأحيان؟

ماذا ننتظرُ؟ وماذا ننتظر..؟؟ بل ماذا لا ننتظر من العاطلين وأشباههم من أصحاب المُعانَيات التي لا تنتهي؟!.

إنه لمن المعيب حقاً والمخجلِ جداً أن يطالبَ البعضُ في بلادٍ تفيض بالخيرات النفطيّة وغيرها، بسنِّ أصرمِ القوانين، وتطبيق أقسى وأبشع العقوبات، على أبناء وطنه الذين رمَت بهم البطالةُ والحاجة الشديدتان في أحضان الخطأ والزلل والانحراف، دون أن يلتفت أو يشير إلى وجوب النهوض بهم وبمستوياتهم المعيشيّة المتدنّية نهوضاً يوقظ ضمائرهم، ويزيد مداخيلهم، وينتشلهم من أوحال الجريمة ويدفع عنهم دوافعَها.

عاقبوا كلَّ مجرمٍ بما ترونه من الروادع، وكونوا صارمين في

ذلك، ونحن جميعاً معكم؛ ولكن لا تتجاهلوا ضرورة الاهتمام بنشر الوعي بين المتجاوزين، وبفتح أبواب العمل الشريف أمامهم، وبإتاحة سبل العيش الكريم لهم، بصورةٍ واضحةٍ شاملةٍ كاملةٍ كافيةٍ عادلةٍ.

تقنين الأحكام الشرعية

1 ـ محاكمنا تصرخ من المظالم، ولذلك نطالب بالتقنين، فما هو؟

هو باختصار: اختيار حكم واضح لكل مسألةٍ، ثم ترتيب الأحكام في (مواد مرقمة) يُلزِم بها القضاة.

2 ـ قضاؤنا الشرعي السعودي قاصرٌ، وعاجزٌ عن تحقيق العدل الكامل بين الناس، لأسبابٍ كثيرةٍ أبرزها (عدم تقنين الأحكام). قنّنوه أو استبدلوه بقضاءٍ جديدٍ عادلٍ واضح.

3 ـ كلّف الملك فيصل رحمه الله هيئة كبار العلماء بدراسة فكرة (تقنين الأحكام الشرعية) عام 1390هـ تقريباً، وما زال قضاؤنا مزاجياً فوضوياً حتى اليوم!

4 ـ نحن أمام خيارين لا ثالث لهما. إما ـ وهذا الأفضل ـ أن نترك هذا القضاء ونستبدله بقضاءٍ وضعيٍّ حديثٍ كبقية الدول، أو أن يتم تقنين الشريعة بشكلٍ جاد!!

5 ـ صدور (مدونة الأحكام القضائية) التي تحتوي على عددٍ من الأحكام الصادرة في قضايا متفرقةٍ، لا يغني عن التقنين، بل هو امتصاصٌ ضارٌ لحماس المطالبين به.

6 ـ إن ترك القاضي يعبث بمزاجيته في مصائر الناس، مستغلاً كثرة الأقوال والمذاهب واختلافات العلماء، جرمٌ ظهر ضرره وزاد خطره، ولابد من القضاء عليه فوراً.

7 ـ يحكم القاضي في محاكمنا بحكمٍ يختلف تماماً عن حكم زميله والقضية واحدةٌ، لأسبابٍ كثيرة؛ كظروفه الاجتماعية والتجارية، ونوعية قهوته وعلاقته بزوجته، وغير ذلك من العوامل التي تؤثر على نفسيته ومزاجه!!

8 ـ لقد باتت الحاجة لتقنين الأحكام الشرعية في المحاكم السعودية ضرورةً ملحةً.. إنه مطلبٌ حتميٌّ لابد من الاستعجال في تنفيذه، إذا أردنا إصلاح هذا القضاء الغارق في الفوضوية، والمزاجية والظلم، والتلاعب والعبث الذي تجاوز كل الحدود.

صديق الفكر أثمن الأصدقاء

علمتني الحياة أن صداقة الدراسة قد تنتهي بانتهاء الدراسة، وأن صداقة المال قد تموت بانتهاء التجارة أو المصلحة المرجوّة، وأن زمالة العمل قد تتقطع أواصرها بسبب الانتقال أو الاستقالة أو التقاعد، وأن صحبة السفر قد لا تدوم طويلاً بعد العودة منه.

أما صداقة الفكر عامةً وصداقة الفكر الحر المستنير في المجتمعات المقيدة المنغلقة بشكل أخصّ، فهي الصداقة الخالدة الشامخة المستمرة في غالب أحيانها.

ليس هناك أثمن من رفيق طريق القناعات والرؤى والآراء والمواقف والمفاهيم المشتركة، أو المتقاربة في أي مكان وزمان، فكيف إذا كان هذا الصديق متفقاً معك في توجهٍ معينٍ في مجتمعٍ يرفضه، أو يصفه غالب أفراده بالضلال أو الزيغ أو الفساد أو الانحراف جهلاً بحقيقته، أو عجزاً عن اللحاق بركبه، أو لعدم القدرة على فهمه واستيعابه بشكل سليم.

إن رفاق الفكر عزيزي القارئ (مهما كان توجهك)، هم أكثر الناس وفاءً وصدقاً وإخلاصاً لك ـ في الغالب ـ وأكثرهم تجاوزاً عن هفواتك، وصفحاً عن تجاوزاتك، فلينهمر مطر تسامحك أنت أيضًا على تلك المعادن الأصيلة لأولئك الأصحاب الأحباب، ليغسل ما قد يتراكم عليها من غبار الزمن وترابه، وأعني بذلك الأخطاء التي لا بد منها، فليس هناك إنسانٌ كاملٌ معصومٌ من الأخطاء أبدًا.

رفاق الفكر هم الثروة الحقيقية النفيسة التي أوصي نفسي قبل أن أوصي الآخرين بأهمية المحافظة عليها، وعدم التفريط بها، مهما كانت الأسباب، وإذا كان القول المأثور يقول (التمس لصديقك سبعين عذراً إذا أخطأ) فصديق المنهج والمسار يستحق التماس آلاف الأعذار له عند ظهور خللٍ أو حصول زلل.

من السهولة أن تجد صديقاً تقضي معه وقتاً جميلاً، ولكن الصعب هو أن تجد مجموعةً من الأصدقاء المتفقين معك في وجهات النظر لتقيم معهم العلاقات الوثيقة الثابتة، ليشاركوك حياة الغربة الفكرية إن صح التعبير، فإذا وجدتهم فغض الطرف عن هفواتهم، وعض على صداقتهم بالنواجذ، وتمسك بها أشد التمسك، وأعلم أنها قد لا تتكرر بسهولة.

قال لي أحد الزملاء الذين يتفقون معي في تفضيل العزلة ـ أحياناً ـ على التواصل الاجتماعي المطلق أو غير المنضبط: إن استمرار الصداقات الحقيقية الجادة الدائمة الوفية في هذا العصر

المادي التقني، الغارق في ضغوط الحياة أمرٌ صعب المنال، فقلت له: أتفق معك في ذلك؛ باستثناء صداقة الفكر، فقد علمني العقد الأخير من حياتي الماضية أنها أصدق العلاقات وأكثرها جديةً ومتعةً ووفاءً وقدرةً على الدوام.

وارفعي الخَفّاقَ أخضَرْ

تتراقص كريات الدم الخضراء في أجسادنا في اليوم الأول من الميزان الموافق 23 سبتمبر (أيلول) من كل عام، وهو اليوم الوطني الذي يحتفل فيه السعوديون تخليداً لذكرى توحيد المملكة، وتأسيسها على يدي جلالة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود رحمه الله.. تتراقص كرياتُ الدم الخضراء في أجسادنا سنويًا عند حلول ذلك التاريخ فرحاً وابتهاجاً، فتتحرك برقصها أعضاؤنا رجالاً ونساءً وأطفالاً للتعبير عن هذه الفرحة الغامرة؛ بمختلف الطرق والأساليب الممكنة، وبتنافسٍ محمومٍ نراه في كل مكانٍ عند حلول هذا اليوم الوطني، وكأنَّ الناس في حلبة سباقٍ كبيرٍ يتسابقون فيها للتعبير عن مشاعرهم الوطنية في عرس الوطن.

فهذه تنظم قصيدةً، وذلك يلقي كلمةً، وهذا يرسم صورةً، وتلك تكتب مقالاً، والآخر يعزف طرباً، والأخرى ترقص فرحاً، والجميع يرفعون الرايات الخضر الشامخة، معلنين الحب والولاء

لهذا الوطن العزيز، والسمع والطاعة لولاة أمره، والتقدير والتبجيل لمؤسسه الراحل العظيم.

وكل هذا جميلٌ ورائعٌ؛ ولكنه لا يعني ولا يستلزم أن الجميع راضون عن كل النواحي في بلادنا، فالخلل موجودٌ ومستشرٍ ومتشعبٌ، والتقصير كبيرٌ ومتعددٌ، كما هو الحال في كثيرٍ من دول العالم، فلا وجود لبلدٍ بلا أخطاءٍ ومشاكل أبداً، ولكن الدول الناجحة هي التي تستطيع رسم إستراتيجيات الإصلاح الحقيقي بشكلٍ جادٍ دقيقٍ مثمر، يحقق الهدف المنشود منها، وهذا ما نرجوه ونتمناه وسيتحقق في بلادنا؛ بتضافر جهود الجميع، وتعاضدهم مع قيادتهم الرشيدة.

ارفعوا شعار محاربة الفساد في كل مكانٍ ترفعون فيه أعلام الوطن في أيام الوطن، فقد بلغ الفساد المالي والإداري حداً ملاحظاً، وارتفعت أعداد العاطلين، وأصبحت أخبار الجريمة تتصدر وتملأ صحفنا صباح كل يوم، وعاثت أصناف المخدرات في عقول شبابنا وأجسامهم تدميراً وفتكاً وإهلاكاً، وزاد عدد الفقراء في كثيرٍ من المناطق، وتضاعف تسلط المتشددين دينيًا على الناس على كافة الأصعدة، وأصبح الخوف والهلع ملازماً لسكان بعض المدن، عند إحساسهم بقرب نزول المطر الذي يفترض أن يكون نزوله سبب بهجةٍ وسرور.

ولن أنسى الخدمات الصحية التي لا تستطيع الحصول عليها بشكل كاملٍ وسليمٍ في مستشفياتنا الحكومية، إلا إذا كنتَ من

أصحاب النفوذ والواسطة، وغير ذلك من صور القصور الكثيرة التي لا تنتهي للأسف.

ومن أجدر النقاط بالإشارة هنا أننا احتفلنا بيومنا الوطني السابق في العام المنصرم 1433هـ، ونحن نشاهد الشعوب من حولنا غارقةً في بحار الدم، نتيجةً لانفراط عقد الأمن الذي يخلق بانفراطه ـ الذي لن يحدث أبداً في بلادنا ـ جميعَ صور الفوضى العارمة التي تحرق نيرانها الأخضر واليابس.

إن مفاتيح السلام والوئام في مجتمعنا مرهونةٌ بتماسك جبهتنا المحلية، وتعزيز لحمتنا الوطنية، بشكلٍ يكفل للجميع ـ باختلاف أعراقهم ومذاهبهم الفكرية والعقدية ـ الاستقرار والراحة، تحت مظلة القانون العادل الشامل الكامل، الذي يحترمه ويذعن له الجميع.

كل عامٍ وشهرٍ وأسبوعٍ ويومٍ وساعةٍ ودقيقةٍ وثانيةٍ وأنتِ بخيرٍ يا بلاد الشموخ والرفعة والفخر والكبرياء والإباء، وكل عامٍ وأهلك الأحرار الأبرار في أجمل حالٍ وأرفع منزلٍ ومكان.

ودامَ عزّك أيها الموطن الذي لو شُغلنا بالخلد عنه لنازعتنا إليه في الخلد نفوسنا شوقاً وحنيناً لثراه الطاهر الثمين.

كيف لا وهي الأرض التي ولدنا وترعرعنا فيها، ونعمنا من خيرها، وأحببنا صنّاع تاريخها، ومات عليها ودفن في جوفها الأحباب والآباء والأجداد.

كلُّ الناس سيدخلون الجنة!..

قامت الدنيا في «تويتر» ولم تقعد، بعد أن قلتُ قبل فترةٍ: «كلُّ الناس سيدخلون الجنة، باختلاف أديانهم وأخلاقهم وتقاليدهم وأعرافهم وثقافاتهم وأشكالهم وألوانهم.. هذا ظني بالكريم الذي وسعت رحمته كلَّ شيء».

توالت ردود الأفعال العنيفة الغريبة المريبة بعد تلك التغريدة، وتعرضتُ لما لا يمكن وصفه من الانتقادات، بل الإساءات والبذاءات للأسف، رغم أنه كلامٌ عاديٌّ صدر من رجلٍ يحسن الظن بخالقه فقط!

ورغم أني بينتها ـ أي التغريدة ـ وشرحتُ مقصدي منها مراراً وتكراراً، إلا أن الاعتراضات استمرت مدةً طويلةً، بل زادت حدّتها وامتدت عدواها إلى صفحتي في «الفيس بوك» أيضاً!

ولأنهم دائماً يقولون: «بالمثال يتّضح المقال»، ضربتُ لهم مثالاً في عدة مواقع الكترونية، وظننته سينهي المسألة وسيوضح

مرادي، ويخمد حمم براكين الغضب المندلعة ضدي؛ ولكنه ـ للأسف الشديد ـ لم يزد نار الاعتراضات إلا توقداً واشتعالاً.

قلتُ في المثال التوضيحي: (الأب أو المعلم يهدد أبناءه بمعاقبة المذنب أو المقصّر في الواجب، ثم يرحمهم في النهاية ـ أحياناً ـ ولا يعاقب أحداً. فكيف برحمة الله؟!)

فقالوا كلاماً كثيراً في الرد على المثال، واخترتُ من كلامهم عدداً من تعليقات أحدهم؛ لأنه طرح رأيه ـ كما هي عادته ـ بأدبٍ واحترامٍ من جهة، ولأنه يمثل رأي شريحةٍ كبيرةٍ من المنتقدين من جهة أخرى.

قال في أول رد له: «إما أن لك يا وائل مصادر تَلَقٍّ غير القرآن والسنة، وإما أنك كاذب والمعذرة، فتكذيب الله أشد، وإما أن الله كاذبٌ حاشاه. فاختر أو ناقش بالدليل وأقنعنا».

فقلتُ رداً على كلامه:

أولاً : ارجع إلى معنى (الظن) في لغة العرب وافهمه جيداً.

ثانياً : كررتُ له المثال التوضيحي السابق: الأب أو المعلم يهدد أبناءه... الخ.

ثالثاً : مصادر التلقي عندي كثيرةٌ، ومنها جميع الكتب السماوية، وغير السماوية، من الكتب المقدسة في بقية الأديان الأخرى؛ بالإضافة إلى كتب وأقوال الفلاسفة والأنبياء والحكماء والأدباء وغيرهم.. الحكمة ضالتي يا صديقي،

وأبحثُ عنها في كل مكانٍ داخل الإسلام وخارجه، وشرح ذلك يطول.

ولكنه أصرَّ على مواصلة الاعتراض، وأرسل التعقيب التالي:

1 ـ تقول يا وائل: «ارجع إلى معنى (الظن) في لغة العرب وافهمه جيداً».

والجواب: دعني أفترض جدلاً أنك تقصد بمعنى الظن (اليقين) ـ لأن الظن في لغة العرب إما يقينٌ وإما شكٌ ـ أليس من التلاعب أن تبني يقيناً على ما لا تملك عليه من الأدلة إلا قولك (المعلم يهدد طلابه بالعقاب ثم يَعْفُو عنهم)؟

2 ـ ثم تقول يا وائل: (الأب أو المعلم يهدد أبناءه بمعاقبة المذنب أو المقصّر في الواجب).

والجواب: إما أن نقول إن الأدلة قال الله وقال رسوله، وإما أن نقول الأدلة شرعاً ما طاب للعقل البشري. فهل الأدلة عندك ما قال الله وقال رسوله صلى الله عليه وسلم، أم ما طاب للعقل؟

3 ـ وتقول: (مصادر التلقي عندي كثيرة، ومنها جميع الكتب السماوية).

والجواب: يعني هذا أنك لا ترى أن شريعة محمد صلى الله عليه وسلم فيها كفايةٌ للمسلم عن غيرها من الشرائع فهل فهمي صحيح؟

4 ـ وتقول: (الحكمة ضالتي يا صديقي، وأبحث عنها في كل مكان).

والجواب: الذي يُعرف لدى المسلمين بديهياً ـ قديماً وحديثاً ـ أن العقيدة تؤخذ من الكتاب والسنة، فهل لك أن تثبت لنا أن من سبقوك بالعلم والفضل قديماً، أخذوا عقائدهم من كل مكان كما تفضلت؟

5 ـ أسئلةٌ مهمة سألها الإخوة قبلي وإضافاتٌ:

ـ هل القرآن عندك يا وائل القاسم يحتمل الشك أم يفيد اليقين قطعًا؟

ـ هل ما في القرآن يستوجب التطبيق والاعتقاد أم أننا مخيرون؟

ـ لماذا بعث الله الأنبياء والرسل... وما هي رسالتهم؟؟

ـ لماذا يدخل الناس الجنة وعلى ماذا يجازيهم الله بها؟

وشكراً.. انتهى كلامه.

وأنا في الحقيقة أشكر هذا الأخ وأمثاله من المتدينين، لدماثة خلقه، ورقيه وأدبه الجمِّ في الحوار، وأتمنى أن يكون الجميع كذلك عند الحوار، فهذا هو المفترض في كلِّ إنسانٍ يدافع عن مذهبٍ أو منهجٍ، حتى لا يشوهه كما يفعل غالب المتشددين دينياً للأسف.

عموماً، إليكم إجابتي عن أسئلته: كتبتُ له:

أ ـ لا يا صديقي، لا تفترض أني أقصد اليقين، فهذا محالٌ، بل هو عكس ما قصدت.. مقصدي من قولي: «ظني بالكريم» هو

التوقع الغالب، أو ترجيح احتمالٍ، أو الشك، وهذا هو الأصل عند العرب رعاك الله.

قال صاحب اللسان:

الظَّنُّ شكٌ ويقينٌ إلاَّ أَنه ليس بيقينٍ عِيانٍ، إنما هو يقينُ تَدَبُّرٍ، فأَما يقين العِيَانِ فلا يقال فيه إلاَّ علم. وقال صاحب الصحاح: «الظَنُّ معروفٌ، وقد يوضع موضع العلم». انتهى كلامهما، وهو واضح بيّنٌ، فقول الأول: (ليس بيقينٍ عيانٍ) وقول الثاني: (وقد يوضع موضع العلم) دليلٌ على أن الأصل في الظن ليس اليقين.

أمَّا قولك: «قلتَ يا وائل: (الأب أو المعلم يهدد أبناءه بمعاقبة المذنب أو المقصّر في الواجب، ثم يرحمهم في النهاية ـ أحياناً ـ ولا يعاقب أحداً. فكيف برحمة الله؟!) والجواب: إما أن نقول إن الأدلة قال الله وقال رسوله وإما أن نقول الأدلة شرعاً ما طاب للعقل البشري، فهل الأدلة عندك ما قال الله وقال رسوله صلى الله عليه وسلم أم ما طاب للعقل؟»

فيكفي هنا للرد عليك يا عزيزي قول ابن رشد رحمه الله:

«الله لا يمكن أن يعطينا عقولاً ويعطينا شرائع مخالفةً لها». فابحث عن الخلل؟!

ج ـ أما شريعة نبينا الكريم عليه السلام، فنعم كما تفضلتَ أنت.. أنا لا أرى فيها كفايةً للمسلم؛ لأن الحياة تتغير والعلم يتطور، وهناك أمورٌ مهمةٌ للإنسان اليوم لم ترد في الشريعة الإسلامية، ولابد لنا من أخذها من مصادرها غير الإسلامية، وهذا

ما أمر به النبي نفسه، ونصوص الإسلام التي تأمر الإنسان بأخذ العلم والمعرفة من كل من يملكها، وهي كثيرةٌ لا حصر لها. . .

يا صديقي: النبي محمد (ص) نفسه استعان بآراء غيره من صحابته، وغيرهم من غير المسلمين في مواقف كثيرةٍ، وهذا يطول شرحه. . (ابحث عنه) وستجد الكثير.

ما تراه بديهياً عند المسلمين أو أكثرهم، قد لا يراه غيرك كذلك، وحتى لو ثبت، فالكثرة ليست حجةً، ولا يحق لك إلزامي به لمجرد أنه قول الأكثرية، فلكل إنسانٍ قناعاته الخاصة به. تذكر هنا قول الله ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

د ـ أجيب عن أسئلتك التي ختمتَ بها مشاركتك:

1 ـ هل القرآن عندك يا وائل يحتمل الشك أم يفيد اليقين قطعاً؟

ـ هناك فرقٌ كبيرٌ بين الإيمان واليقين يا صديقي، فهل سأكون أنا أكثر اطمئناناً من نبي الله إبراهيم عليه السلام، الذي شك بنص القرآن: قال الله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: 260].

أم سأكون أكثر يقيناً من نبي الله موسى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعراف: 143].

كلنا مؤمنون والحمد لله؛ ولكن الفرق شاسعٌ بين الإيمان

واليقين، واعلم وفقك الله أن التساؤل والبحث والتفكير هو الطريق إلى تقوية الإيمان وتثبيته.

2 ـ هل ما في القرآن يستوجب التطبيق والاعتقاد أم أننا مخيرون؟

ـ يستوجب التطبيق والاعتقاد بعد الاقتناع به؛ ولكن فهم القرآن يختلف من إنسانٍ لآخر، فما تراه أنت تفسيراً صحيحاً لآيةٍ كريمةٍ، قد لا يراه غيرك كذلك، بل قد يراه عكس ذلك، وتناقضات المفسرين في جميع المذاهب الإسلامية واختلافاتهم لا تنتهي حول مدلول ومراد غالب الآيات القرآنية.

3 ـ لماذا بعث الله الأنبياء والرسل . . وما هي رسالتهم؟

ـ أجب عن هذا السؤال كما شئت، فكل الإجابات الممكنة لا تتعارض مع تغريدتي (محل النزاع). فرحمة الله كبيرةٌ واسعةٌ وستشمل الجميع في ظني والله أعلم.

4 ـ لماذا يدخل الناس الجنة؟ . . على ماذا يجازيهم الله بها؟

ـ سأستمر في الرد على هذا السؤال وأمثاله من الأسئلة التي تصلني من المعارضين، لاقتناعي بأن جميع الناس سيدخلون جنة ربي. . سأستمر في الإجابة عن جميع الأسئلة المشابهة بالمثال السابق، الذي تعبت في صياغته ورسم صورته، وأعتقد أنه كفيلٌ بإيقاف كل الأسئلة المماثلة لسؤالك، وهو قولي: «الأب أو المعلم يهدد أبناءه بمعاقبة المذنب أو المقصّر في الواجب، ثم يرحمهم في النهاية ـ أحياناً ـ ولا يعاقب أحداً. فكيف برحمة الله؟!». فأعد تأمله جيداً بهدوء.

وبعد أن نشرتُ ردي على هذا الأخ الكريم، قلتُ للجميع في مواقع التواصل الاجتماعي: تغريدتي التي أثارت جدلاً واسعًا: «كل الناس سيدخلون الجنة...» هي ما أعتقده أنا وأظنه في خالق هذا الكون العظيم؛ لأنه هو الذي أوجد في الناس الشهوات والرغبات والنزعات من ناحيةٍ، ولأنه هو الذي قدَّر عليهم الأقدار وكتبها عليهم قبل خلقهم من ناحية ثانيةٍ.. ولم ألزم بها ـ أي بالتغريدة ـ أحداً، فهي قناعتي الخاصة في هذا الموضوع، فمن اقتنع بها فليأخذ بها، ومن لم يقتنع فليضرب بها عرض الحائط، وليحترم ـ قبل ذلك ـ نفسه ووجهات نظر المختلفين معه.

لا يمكن أن يقتنع عقلي ـ مثلاً ـ أن أينشتاين وأمثاله من عظماء البشر سيخلّدون في جهنم، بينما يتنعم في الفردوس الذين لم يقدموا للبشرية إلا الوعظ والبكاء!

حول الزواج والطلاق

إننا نعيش في عصر السرعة التي شملت جميع مناحي حياتنا دون استثناء، فلماذا لا يكون الزواج سريعاً أيضاً؛ أي لماذا لا تتم الخطوبة وعقد النكاح وحفل الزواج دفعةً واحدةً، وبشكلٍ فوريٍّ سريعٍ لا يتجاوز الساعة من الزمن، كبقية الأمور السريعة اليوم؟

إذا اقتنعتْ فتاةٌ بأخلاق شابٍ معيّن، وأعجبت بشخصيته، ووجدتْ فيه المواصفات التي وضعتها لفارس أحلامها، ووجد الشاب أيضاً في تلك الفتاة ما يناسبه ويعجبه ويقنعه ويتمناه في نصفه الآخر، بغض النظر عن آلية التواصل والوسائل التي أوجدت ذلك التوافق والرضا المتبادل من الطرفين، فلماذا لا تتوجه الفتاة إلى أهلها مباشرةً وتخبرهم برغبتها في الزواج من هذا الشاب الذي يرغب الاقتران بها، فيتوجّه الشاب فوراً لطلبها من وليها؟!

ويتم ـ بناء على ذلك ـ الترتيب مع الشاب والمأذون، وتتم الخطبة و«الملكة» والفرح في جلسةٍ واحدةٍ سريعةٍ، يخرج بعدها

الشاب من منزل الفتاة وزوجته بصحبته، دون هذا الكم الرهيب من العادات والتقاليد والمصاريف ومضيعة الوقت في المجاملات والنفاق الاجتماعي، الذي يضر بالزواج أكثر مما ينفع في نظري، بل يساهم في صعوبة الارتباط وتعقيده أيضاً.

إن الزواج لا يتم في بعض الحالات بسبب ظهور عددٍ من العقبات الكأداء الناتجة عن كثيرٍ من العادات والأعراف البالية التي يمكننا الاستغناء عنها، أو التخفيف منها.

أنا لا أطرح هذا الموضوع مازحاً أو عابثاً، بل أتكلم بكلِّ جديّةٍ؛ فقد زادت أعداد الشباب والشابات الراغبين والراغبات في الزواج، بسبب هذا التكاثر البشري الهائل في المملكة، وأصبح من الصعب، بل من شبه المستحيل أن يتم تزويجهم جميعاً بالصورة التقليدية القديمة المُكلِفة المرهقة، التي لا تتوافق مع روح العصر الحديث في رأيي، وهذا هو سبب تكدّس الأعداد الكبيرة من العوانس والأرامل والمطلقات في منازل أهلهن متحسرات على فوات قطار الزواج، وهو سبب عزوف كثيرٍ من الشباب عن الزواج كلياً، أو تأجيله إلى أوقاتٍ متأخرةٍ، خصوصاً في هذا العصر الذي أصبح قضاء الشاب لوطره الجنسي بالطرق الأخرى أسهل من شرب كأس ماء.

باختصارٍ شديدٍ أقول: شابٌ يريد فتاةً أعجبته وأقنعته، وتريده هي أيضاً وأعجبها واقتنعت به.. يتوجّه لأهلها ويتم استدعاء المأذون ويُكتب العقد، ويدفع الشاب ما يستطيع دفعه مهما قلَّ أو

كثر، ويتناول الجميع ما يتوفر من الطعام والشراب في احتفالٍ بسيطٍ سريعٍ مختصرٍ، ثم يخرج الشاب بزوجته إلى بيته، وانتهى الموضوع.

أليس ذلك أفضل من دخول الشاب أو الشابة إلى موقع إلكتروني معيّن، أو الذهاب لمكانٍ ما، بحثاً عن علاقةٍ عابرةٍ تُشبع الغرائز والرغبات العاطفية والجنسية الفطرية؟!

لوتم الموضوع بهذه السلاسة التي شرحتها، واستطاع المجتمع تنفيذ ذلك بهذه البساطة، فستنتهي في ظني كثيرٌ من الإشكالات، وستزول غالب العقبات التي تعترض طريق الراغب أو الراغبة في إكمال نصف الدين، ولن تكون منازل كثيرٍ من الآباء ـ كما هي اليوم ـ سجوناً للمحرومات من الزواج وغيره من حقوقهن الطبيعية المشروعة في هذه الحياة.

وبما أن الحديث عن الزواج السريع وضرورته، فمن المناسب أن أتطرق لأبغض الحلال وخطورته، وما ينتج عن التسرّع فيه من ألم وندم شديدين في كثير من الحالات، ويظهر ذلك جلياً عند الحديث مثلاً عن (حنين المطلقين لمطلقاتهم) والعكس، فقد ربطتني علاقات صداقةٍ ببعض المطلِّقين خلال سنوات عمري الماضية، وبلغت الصداقة مرحلة «الميانة» في نسبة من تلك العلاقات، مما جعلني أستمع لكثيرٍ من تجاربهم ومشاعرهم الخاصة في هذا الموضوع.

وقد أجمع جميع أولئك المطلقين ـ تقريباً ـ على أنهم يحنّون

لطليقاتهم، بعد الانفصال الذي حصل لأسبابٍ تافهةٍ كان بالإمكان تفاديها، وهذا ما أذهلني حقاً.. لقد شعرتُ بقوة الحنين وشدة الندم في كلِّ حرفٍ من حروف كلماتهم.

إن حنينَ المطلقين لمطلقاتهم وشوقهم لأيامهم الجميلة معهن، وكذلك حنين بعض المطلقات لأزواجهن السابقين عبرةٌ وتحذيرٌ وتنبيهٌ لكل زوجين بضرورة إغلاق جميع الأبواب في وجه قرار الإنفصال، الذي يتندم عليه غالب الأزواج بعد هدوء العاصفة واستقرار الأمور، ولاتَ ساعة مَنْدَم.

يتحدث الكثيرون عن أسباب انتشار الطلاق في مجتمعنا، بعد أن بلغ أرقاماً مخيفةً تجاوزت المعدلات المعقولة أو المقبولة في المجتمعات السوية، ويغفل هؤلاء أو يتجاهلون ـ عمداً ـ قضية ضرورة التعارف الكامل بين الزوجين بشكل جيدٍ وعميقٍ قبل الزواج بفترةٍ كافيةٍ، والتي هي الأساس الأول لنجاح الزواج واستقراره واستمراره من وجهة نظري، وكما يقول المثل الشعبي (العود على أول ركزة)، فماذا ننتظر من أسرةٍ يركز عودها بطريقةٍ مائلةٍ خاطئةٍ مخالفةٍ للفطرة السوية عند بداية تأسيسها؟.

لا يشاهد الزوج السعودي زوجته إلا في غرفة النوم ليلة الدخلة، باستثناء نظرة الخطوبة السريعة، وبعض اللقاءات السريعة التي مازال بعض أولياء أمور النساء يتهرب منها بعد «الملكة»، أو يسمح بها بطريقةٍ تعسفيةٍ غليظةٍ وبشكلٍ مختلٍ ناقص، أو يرفضها نهائياً كما حصل لبعض من أعرفهم جيداً للأسف الشديد، وحتى

هذه الزيارات أو اللقاءات لا تستمر ـ غالباً ـ إلا دقائق معدودةً وفي جو عسكري مكهرب، وبمتابعةٍ دقيقةٍ من الحرس المرافق لزوجة المستقبل.

أنا لا أطالب بالسماح بالعلاقات التي يصفها البعض بالمحرمة بين الجنسين قبل الزواج، فللعرف الاجتماعي المقيد بثوابت الدين الحنيف تقديره واحترامه، بغض النظر عن القناعة أو المعارضة لبعض ما فيه، بل وأعلم أنه يجب التأكيد على كل امرأةٍ بضرورة التأكد من جدية المتقدم للارتباط بها، قبل الانخراط معه في التعارف القوي الجاد الذي لا بد منه.

ولكن إمساك العصا من المنتصف أيضاً، ضرورةٌ حتميةٌ ومطلبٌ ملحٌ في ظل هذا الفشل الذريع لما يقارب نصف حالات الزواج في المملكة، وحتى النصف الآخر ـ الذي لا ينتهي بالطلاق ـ فإنه لا يخلو في كثيرٍ من أحيانه من المشاكل الضخمة والعقبات الكؤودة، التي تعكر صفوه، وتتسبب في مشاكل نفسيةٍ كبيرةٍ لطرفيه، واسألوا إن شئتم الأطباء النفسيين عن عدد الأزواج الذين يقصدون عياداتهم للعلاج من الأمراض النفسية المتعلقة بنصفهم الآخر ذكوراً وإناثاً، وفي جميع مناطق المملكة دون استثناء.

إن النواة الأولى لتكوين الأسرة المستقرة هي وجود الحب والمودة، والتآلف والتفاهم والقبول، والارتياح النفسي بين الزوجين، وهو ما أكده القرآن بقوله (وجعل بينكم مودةً ورحمة).

فكيف يتحقق ذلك في علاقةٍ لا تبدأ إلا في غرفة النوم ليلة الدخلة؟!

وختاماً أقول مداعباً: أتمنى أن لا يفهم أصدقائي من هذا الموضوع أني أفكّر بالزواج، فقناعاتي الخاصة حوله ـ في مجتمع كمجتمعنا ـ ما زالت مستمرةً كما هي، ومازلتُ أفضل العزوبية عليه، إلا إذا وجدتُ الفتاة التي أريدها وما أصعب ذلك؛ ولكنها وجهة نظرٍ أقدّمها لمجتمعي الذي يؤلمني ما أشاهده فيه من التخلف والفوضى والتناقضات، التي لا تنتهي في هذا الموضوع وفي غيره من المواضيع الاجتماعية الكثيرة الأخرى.

القصاصُ في غرفةِ الغاز!

هو اقتراحٌ أضعه على مكاتب مسؤولينا وعلمائنا الأفاضل، راجياً أن يُدرَس بعنايةٍ، وأحب أن أؤكد على أن طرحي لهذا الموضوع لا يستلزم بالضرورة صحة رأيي فيه، ولكنه اجتهادٌ قابلٌ للأخذِ والعطاءِ والنقاشِ.

تفوحُ من نصوص الدينِ الإسلامي الحنيف روائح الرحمة والشفقة واللين، ولا أظن ديناً سهلاً سمحاً كهذا يمنعُ أو يعارض البحثَ عن الأمثلِ والأيسر للناس واختياره وتطبيقه، ومن ذلك طريقة الإعدام قصاصاً أو تعزيراً.

وأجزمُ أن النبيَّ الكريم ـ عليه السلام ـ اختار تنفيذ الإعدام بالسيف؛ لأنه أفضل وسيلةٍ متاحةٍ في عصره، إن كان في ذلك الزمن وسائل أخرى أصلاً، ولو وجدَ وسيلةً تؤدي إلى الغاية بطريقةٍ ألطف وأخفّ لما تردَّد في قبولها وتطبيقها.

كيف لا وحديثه يأمر بإراحة البهيمة عند ذبحها، ولا شك أن

إراحة الإنسان عند إزهاق روحه، ومراعاة مشاعره ومشاعر أهله ومجتمعه من باب أولى!.

إن القصد من ضرب العنق بالسيف هو إنهاء حياة الإنسان، لينال جزاءَ ما اقترفت يداه من جُرْم، وليكون عبرةً لمن تسوّل له نفسه القيام بفعله، وهذا الهدف متحققٌ في جميع وسائل الإعدام؛ ولذلك أرى أن اختيار أحد طرق القتل الحديثة قد يكون أنسب لروح وطبيعة هذا العصر الذي نعيشه، مع أني أفضل ـ كما طالبتُ مرارًا ـ الابتعاد عن عقوبة الإعدام قدر المستطاع، فهناك كثيرٌ من العقوبات الرادعة الأخرى، التي قد تغني عنها في كثير من الأحيان.

أتفق مع القائل: إن الإعدام رمياً بالرصاص أو عن طريق الكرسي الكهربائي لا يقل بشاعة وألماً ـ جسدياً ونفسياً ـ عن القتل بالسيف؛ ولكني أختلف معه قطعاً حين يكون الحديث عن الإعدام في (غرفة الغاز)، أو عن طريق (حقنة الموت)، بكل هدوءٍ وسريةٍ في مكانٍ خاصٍ بعيدٍ عن الأنظار.

فحقنة الموت الرحيم تحتوي على «صوديوم البينتوثال» الذي يُفقِد الوعي فوراً، وعلى «بروميد البانكورونيوم» الذي يوقف عملية التنفس تماماً، ويصيب الرئتين بالشلل الكامل، وعلى «كلوريد البوتاسيوم» للإسكات المباشر لنبض القلب؛ وكل هذه العمليات ـ أي فقدان الوعي وتوقف الخفقان والتنفس ـ، تتم في دقائق معدودة، وأحياناً في أقل من دقيقةٍ؛ حسب الدراسات العلمية التي

اطلعت عليها، والتي توصي بزيادةِ كميات تلك المواد لإنهاء حياة الإنسان في زمنٍ أقلّ.

أما غرفة الغاز، فهي غرفةٌ مغلقةٌ بطريقةٍ محكمةٍ، تمنع تسرُّب الغازِ منها، ويدخل فيها المحكوم عليه، ثم تقوم الجهةُ التنفيذية بضخ قويٍّ لكمياتٍ كبيرةٍ من الغازاتِ المسبِّبة للموت السريع أو أحدها، وهناك عددٌ من الغازات التي يمكن اختيار الأقوى والأسرع والأخف ألماً منها، ومن الجميل أن بعضها يسبب للسجين نعاساً شديداً متصاعداً، ينتهي به إلى الموت وهو غائبٌ عن الوعي.

أتمنى دراسة هذا الاقتراح بهدوءٍ تام، وتأملٍ وتمحيصٍ جادين دقيقين، والعمل به إن كان مناسباً؛ لعلنا لا نشاهد بعد تطبيقه تلك الصور المزعجة، التي تؤلم المحكوم عليه وأسرته والمقربين منه، وغيرهم من الناس نفسياً، عند اقتياده للقتل في تلك السيارة الخاصة المخيفة، وعند إنزاله منها معصوبَ العينين مفتوحَ الأذنين، سامعاً أصوات المتجمهرين لمشاهدة إعدامه، الذين يغشى على عددٍ منهم ـ كما رأيت بأمِّ عيني ـ مِن قوَّةِ أثرِ الصدمة، بعد ضرب السيّاف عنق ذلك الإنسان!!

السعوديون ووأد العبقرية

إن وطناً يملك قدراً عالياً من العبقرية التي تركزت في عقول أفرادٍ قليلين من أبنائه، ثم لا يعطي هؤلاء النوادر حقهم المشروع في البروز والتعبير والإبداع، بحجة مخالفتهم للمرغوب أو المألوف أو المسموح به، لهو وطنٌ يحتاج إلى إعادة قراءة منهج بناء القدرات الإنسانية عاجلاً، قبل أن يهبط إلى أسفل درجات الحضيض والانحطاط.

يعتصر الألمُ قلبَ كلِّ غيورٍ منصفٍ وهو يشاهد ـ على سبيل المثال ـ كثيراً من الكتاب المبدعين في مجتمعنا يكتبون خلف أسماءٍ مستعارةٍ، بل ويكتب بعضهم باسمه الصريح، ولكنه رغم ذلك لا يستطيع نشر ما يريد في وسائل الإعلام المحلية؛ لأن ما يطرحه يتجاوز سقف حرية الرأي في بلادنا.

قرأتُ لبعض الكتاب من الفئتين مقالاتٍ رائعةً لا يستهان بها أبداً، سواء ما نُشر منها في المنتديات الحوارية على الشبكة

العنكبوتية، أو ما نُشر منها عن طريق وسائل إعلامٍ رسميةٍ خارجيةٍ للأسف الشديد.

وأزعم واثقًا أن فيهم الكثير من الأذكياء والفصحاء والبلغاء والمبدعين، بل وفيهم ـ دون مبالغة ـ بعض العباقرة والنوابغ الذين يحملون فكرًا جميلاً يتجلى في طرحهم المميز الذي يفوق كثيراً من الغثاء الذي يُطرح أحياناً في بعض منابرنا الإعلامية المتعددة.

المتخفون خائفون من السياط الجاهزة لجلدهم، وأقصد بها سياط التطرف الديني من جهةٍ، وسياط العادات والتقاليد الأسرية والاجتماعية البالية من جهةٍ أخرى. والمصرحون بأسمائهم الحقيقية عاجزون ـ رغم شجاعتهم ـ عن الوصول إلى الصحف والمجلات والإذاعات والقنوات التلفزيونية وغيرها؛ لمخالفة توجهاتهم أو بعض أفكارهم لما يريده الوصي والرقيب.

إن النفس لتشتعل حسرةً وحزنًا وهي ترى فئامًا من عباقرة الوطن ومميزيه يلجأون إلى صحفٍ أو مجلاتٍ أو دور نشرٍ أو معارض أو قنواتٍ تلفزيونيةٍ أو دور عرضٍ خارجية، لنشر نتاجهم الفكري أو عرض إبداعهم الفني، سواء كان ذلك النتاج مقالاتٍ أو كتباً أو أفلاماً أو مسلسلاتٍ أو رسوماً أو شعراً أو غير ذلك مما مُنع من النشر أو العرض في بلادهم.

أليس جحا أولى بلحم ثوره يا سادة؟ فلماذا تستمر الوصاية الفكرية إذن، ولماذا يُغتال النبوغ وتُحارب العبقرية بالرقابة المتكلَّفة التي لم تعد تجدي نفعاً في ظل هذه الثورة الالكترونية الهائلة التي

جعلت وصول المنتَج الفكري ـ بغض النظر عن كنهه وجوهره وقيمته ـ للمتلقي أسهل من شرب كأس ماء.

استبشرنا خيراً بالخطوات المدروسة، والنتائج الملموسة التي تسير عليها وحققتها وزارة إعلامنا في الفترة الأخيرة، ولكننا ما زلنا نطمح ونطمع في المزيد، فارفعوا سقف الحرية ـ ولو قليلا ـ يا من بيدهم رفعه، فهناك كثيرٌ من العقول المتوقدة التي يحمل أصحابها مواهب تستحق التقدير وإتاحة الفرصة، وهم بحاجةٍ ماسةٍ لمن يتبناهم بصقل تلك المواهب وبلورة أفكارها حتى وإن خالفت السائد والمألوف، أو كسرت أغلال المتعارف عليه أو بعض المتوارث في بعض الأحيان.

ولنا في خادم الحرمين الشريفين أجمل قدوةٍ وأعظم أسوةٍ ومثالٍ؛ فقد فتح أبواب حرية الرأي على مصراعيها بتبنيه ـ حفظه الله ـ لفكرة حوار الأديان والحضارات، التي أقام لها المراكز والمؤتمرات والمناشط الكثيرة المتعددة، ولا شك أن السماح بالحرية القصوى في التعبير عما دون حوار العقائد والأديان من باب أولى.

كم هو مؤلم لمن يملك فكراً أن لا يستطيع طرحه وشرحه والبوح والصدح به في وطنه..

لمثل هذا يذوب القلبُ من كمدٍ

إن كان في القلب إنصاتٌ وإحسانُ

توبوا من الليبرالية!

أحبُّ الليبرالين والتنويريين والحداثيين والنهضويين والعلمانيين والتقدميين والانفتاحيين، ولكني لا أمثل أحداً. . أحب الليبراليين وأقدّسهم وأتفق معهم في كثيرٍ من قناعاتهم ومفاهيمهم حول «الليبرالية» وتعريفاتهم الكثيرة لها؛ ولكني لا أمثلهم ولا أمثل غيرهم كما كررتُ كثيرًا. . أنا لا أمثل إلا نفسي. . نفسي فقط. ومشاركتي في تأسيس الشبكة الليبرالية السعودية الحرة وفي الإشراف عليها، لا تعني أني أمثل هذا المذهب الجميل أو هذه الحركة السامية النبيلة، ولا تستلزم بالضرورة أني أمثل الليبراليين في المملكة؛ لأن الليبراليين السعوديين وغيرهم يختلفون في تعريف هذه الليبرالية من ناحيةٍ؛ ولأني مازلتُ بحاجةٍ إلى كثيرٍ من الأمور التي تنقصني قبل أن أكون ليبراليًا بالمعنى الكامل الشامل المشرق العظيم من ناحيةٍ أخرى.

وبعد هذه المقدمة الضرورية أقول: الليبرالية التي أحبها ـ رغم

اختلاف تعريفاتها ـ ليست ديناً، وليست معصيةً أو جريمةً تجب التوبة منها.

إنها ليست إلا منهج حياةٍ يدعو إلى المرونة والتعايش والصفاء والتسامح، والسماح لكل إنسانٍ أن يعيش بالشكل الذي يريده ويختاره.. هي أن يعيش حراً فقط.. حرّاً بكل ما تحمله الكلمة من معنى.. حرّاً في فكره.. في قوله وفعله.. في معتقده واختيار مذهبه.. حرّاً حرّاً حرّاً في كل شيء.. هل تفهمون ذلك يا من تطالبوننا دائمًا بالبعد عنها والتوبة منها؟ لا أظنكم تفهمون!!.

ومن الطريف في هذا أنهم يقولون جهلاً: تاب الليبرالي وأصبح مسلماً.

أيها المتنطعون أصلح الله حالكم:

أنتم من يحتاج إلى التوبة الحقيقية.

أنتم من يحتاج إلى تربيةٍ يا دعاة التربية!، وليس أنا ولا غيري من عشّاق الحرية وكتّاب التنوير، ودعاة الحداثة والنهضة والتقدم في هذا الوطن العزيز الشامخ.

اخلعوا ثياب غروركم وعنجهيتكم وتغطرسكم، وانزلوا من أبراجكم العاجية الورقيّة، قبل أن تسقط بكم في أوحال وأودية النهاية السحيقة لفكركم المتزمّت، الذي يزعم معرفة كلّ شيءٍ في هذا الوجود، وهو لا يعرفُ شيئاً أبداً، إلا الجهل والخرافة والوصاية والتخلّف والتكلّف والحماقة والظلام والرجعية ومحاربة الآخر دون فهمٍ له أو محاولةٍ لفهمه.

ليس شرطاً أن يتفق جميع البشر معكم في أفكاركم، وليس شرطاً أن يكون الإنسان المخالف لكم في الرأي خبيثاً حاقداً عليكم، أو ناقماً منكم، أو ينوي الضرر بكم وبمجتمعكم كما تتصوّرون في خيالاتكم المريضة.

قلنا لكم مرارًا وتكرارًا:

إن تقديس (الأُخوَّة الإنسانية) وتهميش ما سواها، هو السبيل الوحيد لسعادة كلِّ البشر، وهو الأمر الذي نهضت وارتقت وانتصرت به شعوب المجتمعات المتحضرة السويّة، فلماذا لا نصبح مثلهم؟.

لماذا لا تؤمنون بأن الاختلاف في الآراء هو طبيعة البشر في هذه الحياة؟! إننا نحثكم على التفكير في ذلك بوعيٍ.. ندعوكم إلى الإيمان به!

عيشوا حياتكم يا أحبائي كما تريدون، ودعوا الناس وشأنهم.. دعوهم يعيشون حياتهم كما يريدون، فهذا حقهم المشروع. إن تدخلكم في خصوصيّات الآخرين سلوكٌ لاحضاري.. هل تفهمون؟!

لماذا يتلفظ كثيرٌ منكم على المختلفين معكم أو عنكم بكلماتٍ نابيةٍ منحطةٍ بشعةٍ، موغلةٍ في التكفير والتحريض والتهديد والإساءات بمختلف أشكالها وألوانها؟!

كيف تدعون الناس إلى منهجكم الذي ترونه صواباً، وهم

يرون ما تتقيأون به يومياً من ألفاظٍ مقززةٍ في مواقع الانترنت وغيرها.

إنها ألفاظٌ وأساليب تُشْعِر من تدعونه لتلك التوبة، أنه ذاهب للجحيم لا للنعيم الذي تزعمون، فهل التوبة هي انتقال الليبرالي العلماني التنويري الجميل من عالمه الراقي المتحضّر إلى عالمكم الإرهابي الأسود، الذي لا يدل إلا على سوء التربية وقبح المنهج وخبث الطوية، في كثيرٍ من الأحيان.

هل هذا هو الإسلام وهل هذه هي أخلاقه!؟

هل هذه أخلاق نبيكم الكريم محمد ـ عليه السلام ـ يا من تزعمون الاقتداء به زوراً وكذباً وبهتاناً!؟

لن نغيّر أفكارنا، ولن تستطيعوا ليَّ أعناق قناعاتنا بأساليبكم المنتنة الرخيصة، ولن نرضخ لما تقولون وتزعمون وتدّعون (وأعلى ما في خيلكم اركبوه).

إن أفكارنا ومواضيعنا التي نرددها باستمرارٍ ونطالب بها، ليست مزحاً أو عبثاً أو إضاعة وقت. إنها قناعاتٌ حقيقةٌ ناضجةٌ كاملةٌ جادّةٌ، تمخضت عن مراحل طويلةٍ من التفكير والنظر والإطلاع والبحث والتأمل. احترموها واحترموا حقّنا في التعبير عنها، كما نحترمكم ونتحمّل ضجيجكم وصخبكم وإزعاجكم القديم المستمر، أيها العاجزون المفلسون.

نعم، إننا نريدُ فتحَ أبوابِ الحريّة على مصاريعها في بلادنا دون قيدٍ أو شرطٍ. نريد فتح باب حرية الرأي والتعبير والاطلاع

والسلوك، واختيار المذهب الديني، وممارسة الإنسان لكل ما يريد من الحريات الشخصية.

أكرر للمرة المليون وأقول: إن «الليبرالية» ليست مذهباً عقدياً أو شريعةً تعبديّة. إنها ليست ضلالاً أو كفراً أو انحرافاً أو فسقاً كما يردد الجهلة دائماً، بل هي السلام والحب والوئام، فأجيدوا فهمها وتطبيقها لتنعموا في حياتكم من جهةٍ، ولينعم الآخرون بالعتق من أغلالكم والخلاص من إزعاجكم ومضايقاتكم وتصرفاتكم الرعناء، التي لا تنتهي من جهةٍ أخرى.

لماذا نتباغض؟ لماذا لا نتعايش؟ لماذا يكيد بعضنا لبعض؟ لماذا نحوّل الاختلافات في الآراء إلى خلافاتٍ شخصيةٍ، ونحن جميعاً نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسوله؟

آمل أن تتسع الصدور، وأن تهدأ النفوس، وأن يزول الاحتقان والتوتر، وأن يكون الحوار المؤدب سبيلنا جميعاً عند الاختلاف في المواقف ووجهات النظر.

لماذا لا تُفتح أبواب المناظرات ـ مثلاً ـ أمام حَمَلة القناعات المتعارضة في الساحة الثقافية السعودية!؟

إنني أطالب بفتح أبوابها بشكل حضاريّ حياديٍّ مقنّنٍ منظم، وفي كل المجالات، وعلى الأصعدة كافة، وأنا على أتمِّ الاستعداد لمناظرة من يرغب، بشرط التزامه بأعرافها المرعيّة عند الأسوياء من البشر.

ولنا في خادم الحرمين الشريفين أجمل قدوةٍ وأعظم أسوةٍ

ومثالٍ؛ فقد سمح بذلك بكل قوّةٍ، بتبنيه ـ حفظه الله ـ لمشروع حوار الثقافات والأديان والحضارات، الذي أقام له المراكز والمؤتمرات والمناشط الكثيرة المتعددة.

إذن: المناظرات هي الحل.. نعم، المناظرات هي الحل.

إن السماح بالمناظرات بين المتعارضين في الآراء والقناعات، تحت إشراف الجهات الرسمية المسؤولة، هو العلاج الناجع لما يشهده مجتمعنا من صداماتٍ فكريّةٍ خارجةٍ عن حدود المعقول الطبيعي الموضوعي.

إنه لمن الضروري الملحّ جداً ـ في هذه المرحلة ـ أن يتدخّل العقلاء تدخلاً فورياً لوأد الفتنة في مهدها قبل أن تُحرق نيرانها الأخضر واليابس، فقد بلغت المصادمات والمشاحنات بين أتباع المذاهب والتيارات الفكرية والعقدية في المملكة حدًا مخيفًا، وكما قال نصر بن سيّار الأموي محذراً قومه:

أَرَى خَلَلَ الرَّمادِ وَمِيضَ نَارٍ ... ويُوشِكُ أَنْ يكُونَ له ضِرامُ
فإِنْ لَمْ يُطْفِهِ عُقَلاءُ قَوْمٍ ... فإِنَّ وَقُودَهُ جُثَثٌ وهامُ
فإِنَّ النَّارَ بالعُودَيْنِ تُذْكى ... وإِنَّ الحَرْبَ أَوَّلُها كَلامُ

إيماضات

- يقترب عدد سكان المملكة اليوم من (30 مليون)، وأظن - في تقديري - أن المتطرفين دينيًا منهم لا يتجاوزون 25% كحدٍ أقصى؛ فلماذا تُفرض قناعاتهم على الجميع؟!

- يقولون لك: قناعاتنا المذهبية لا تتعارض مع العقل السويِّ والحمد لله.

ثم إذا طرحتَ طرحًا يناقش بالعقل شيئاً من تلك القناعات قدموك إلى المحكمة.

- إذا تعرض مثقفٌ أو كاتبٌ أو مفكرٌ تنويريٌّ لحادث سيارةٍ أو غيره من المصائب قالوا: عقوبة. وإذا تعرض واعظٌ لكارثةٍ مشابهةٍ، قالوا: أجرٌ وتكفيرٌ وابتلاء.

- ربما لو ولد ابن لادن في لاس فيغاس لكان خمّارًا أو قمّارا، وربما لو ولد مايكل جاكسون سعوديًا لكان إرهابيا.. لا أحد يختار دينه ولا مجتمعه ولا أيَّ شيءٍ.

- لا يمكن أن يقتنع عقلي أن إديسون ونيوتن وأينشتاين وأمثالهم سيخلّدون في جهنم، بينما يتنعم في الفردوس الذين لم يقدموا للبشرية إلا الوعظ والبكاء؟!

- يَخِرُّونَ سُجَّدًا بعقولهم تحت أقدام وحوشٍ استعبدتهم، بتمثيل دور دعاة الفضيلة، ولبس أزياء الوعظ والنصح، وإظهار التعلّق بالسماء لافتراسهم على الأرض!!

- هل الشيعيُّ الذي يلطم نفسه في عاشوراء يضركم أيها الساخرون منه؟ لا يقبل عقلي تصرفه، ولكنه حرٌ في عقيدته. وفي «الوهابية» أيضًا أمورٌ غريبةٌ كثيرةٌ تُعارض العقل.

- لا تصدق كل شيءٍ يقوله لك أبوك أو أمك أو معلمك أو الرئيس أو الواعظ أو غيرهم... فكثيرٌ من القناعات السائدة ليست إلا مجرد خزعبلاتٍ وأوهامٍ وأكاذيب.

- لم أجد دليلاً من العقل ولا النقل يحرم تمثيل الأنبياء، فلماذا لا نرى في رمضان مسلسلاً عنوانه (محمد) يروي السيرة الجميلة لنبينا الكريم؟

- قمة استفحال الحمق والسفه والبلاهة والجهل والغباء، أن تصدّق أن إلهاً سيرضى عنك إذا سفكت دماء المؤمنين بأديان أو مذاهب تختلف عن دينك أو مذهبك.

- يحفظ قليلاً من النصوص الشرعية، وشيئًا يسيرًا من المتون، ثم يأتي نافخًا ريشه: افعلوا ولا تفعلوا؛ هذا حلالٌ وهذا حرامٌ. كأنه رسولٌ من السماء!

- إذا كره الأحمق قومًا أو مذهبًا أو عادى مجتمعًا لسببٍ ما، فإنه يرفض كلَّ ما عند أولئك القوم، وكلَّ ما في ذلك المذهب أو المجتمع جملةً وتفصيلاً !!

- الإنسان كائنٌ مسكينٌ مضطربٌ تائهٌ متخبطٌ حائرٌ منذ الأزل، ولكن التطور الهائل للتقنية ووسائل الاتصال والإعلام اليوم، أظهر لنا هذه الحقيقة بكل وضوح.

- لا يمكن أن أحكم على إيِّ إنسانٍ بالضلال الأكيد أو الانحراف التام أبداً، مهما قال أو فعل؛ لأنه لا يوجد في هذه الحياة أيُّ شيءٍ مفهوم بنسبة 100%

- نحن لا نعرف شيئاً عن أي شيء. ولذلك نتحدث ونكتب في كل شيءٍ. ولن نتوقف؛ لأن الذين يعرفون أنهم لا يعرفون قلةٌ، وحتى هؤلاء لن يتوقفوا؛ لأنهم أحياء.

- من مؤشرات موت العدالة في أي مجتمعٍ، تحوّلُ القضاء إلى سلاحٍ ينتصر به أتباع تيارات فكريةٍ ومذاهب دينيةٍ معينةٍ، على غيرهم من أتباع مذاهب وتياراتٍ أخرى!

- إلى كل «مطوّع» يستخدم الألفاظ البذيئة أو الأساليب المنحطة في الحوار، وهو يظهر بصورته، على الأقل يا عزيزي: احلق لحيتك، أو أكتب باسم مستعارٍ، حتى لا تشوّه هذه السنة النبوية!

- لاحظت اتجاه الدولة مؤخرًا إلى كسر بوتقة الانغلاق الفقهي المحصور في آراء فئةٍ معينةٍ من العلماء، وهذا شيءٌ مفرحٌ، ويزرع في أعماقنا بذورَ أملٍ جديدٍ بمستقبلٍ مشرقٍ، لمجتمع ظل

حبيساً للرأي الفقهي الواحد طيلة عقودٍ طويلةٍ ماضية.

- قمة المعاناة أن يقول إنسانٌ: ليتني خُلقت محدود العقل غبياً جداً، لكي أكون سعيداً جداً، وقادراً على الانسجام مع الأكثرية والاقتناع بقناعاتهم.

- كم أنت مسكينٌ ومظلومٌ أيها الشيطان الطيب الصامت. يحملونك المسؤولية عن جرائمهم، ويبررون كل خطاياهم بوجودك؛ ثم يلعنونك ويصفونك بالخبيث والرجيم!

- يجب عليك احترام المختلفين معك في الآراء.. حتى الكافر في نظرك يجب عليك احترامه؛ لأنك قد تكون كافراً في نظره أيضاً!!

هناك اليوم في الأرض أكثر من 6 مليار إنسان لا يصلي صلاتك. (الدين لله والحياة للجميع).

- رحم الله الرصافيَّ ما أجمل قوله:

لُقنتُ في عصر الشباب حقائقاً
في الدين تقصر دونها الأفهامُ
ثم انقضى عصر الشباب وطيشه
فإذا الحقائق كلها أوهامُ

- كثر البذيئون في مواقع التواصل الاجتماعي وغيرها.

المشكلة ليست في البذاءة أو الفحش أو قلة الأدب، فلكل مجتمعٍ حثالة.

المشكلة أن يكون البذيء إعلامياً أو كاتباً أو طبيباً أو معلماً أو أديباً أو مهندساً أو رجل دينٍ أو ذا مكانةٍ ما.

- كلُّ أقوالنا وأفعالنا في هذه الحياة محاولاتٌ متكررةٌ للهروب من رؤيتها كما هي.

- العاقل: أحترمُ كلَّ الآراء.. فرأيي صوابٌ يحتمل الخطأ، ورأي غيري خطأٌ يحتمل الصواب. أما الأحمق: ما أريكم إلا ما أرى، وما أهديكم إلا سبيل الرشاد!

- لسان حال البعض في مواقع الإنترنت: سأجعل قلمي يحاور قلمك، فإن نجحت في إقناعك برأيي كان بها، وإن أخفقت أو عجزت عن دحض حججك، أزحت القلم وأشهرت في وجهك السيف!

- أفتى كثيرٌ من أئمة الإسلام بإباحة المعازف والغناء أو عدم تحريمه، ومنهم: ابن حزم والغزالي وأبو حنيفة والشافعي ومالك وابن دقيق والعز بن عبد السلام والشوكاني، وغيرهم. فلماذا لا يشير وعاظنا إلى أقوالهم عند الحديث عن حكم الغناء في الإسلام؟

- في بلادي يُسمّى اللصُّ شيخاً، فلص الكتب شيخٌ، ولص صكوك العقار من القضاة شيخٌ، ولص الأعراض تحت مسمى «المسيار» وغيره شيخٌ. ووو... ويا بلادي واصلي.

- يعتقد أتباع كل دينٍ أو مذهبٍ أنهم (الفرقة الناجية)، وهذا سبب كل شر. الأخوّة الإنسانية أعظم روابط الحب، وهي سبيل السلام بين البشر؛ فاعتصموا بحبلها.

- قمة التلاعب بالدين وتشويهه في عيون الناس وتنفيرهم منه، أن يقوم الداعية علناً بممارسة ما يحرّمه عليهم. والله إن تصرفات بعض الوعاظ سببٌ في انتشار الردّة والإلحاد!!

- قال صديقٌ في مجلس: ما هو أعظم شيءٍ في الحياة؟ قلتُ فورًا: حرية العقل. سألني: وما هو العقل الحُر؟ أجبته: هو النبي الذي لا يقبل أن يوحي إليه أحد.

- إن وطناً يُشهر السيف والعصا والأغلال في وجه من يحمل قلماً من المفكرين أو المستنيرين أو المثقفين، لهو وطنٌ جديرٌ بالهبوط إلى قعر حضيض الانحطاط.

- الفكر لا يواجه بالسجن والجلد.. الفكر لا يواجه إلا بالفكر. متى يفهم ذلك المفلسون العاجزون الذين يستخدمون الوسائل اللاإنسانية بدلاً عن الحوار؟

- إذا خاطبتَ عقل الإنسان بالحجج والأدلة والبراهين، فتجاهلَ خطابكَ وهاجمَ شخصك، فسامحه وابتسم له حتى يرضى، ثم ودّعه وواصل طريقك؛ لأنه عاجزٌ مسكينٌ مفلس.

المحتويات

الاهداء 5

استهلال 7

النفاق الثقافي المحمود! 11

حرية العقل في الإسلام! 21

غباء الببغاء 31

عقولٌ كسلال النفايات! 35

هكذا هو الإنسان 41

شذوذ العباقرة! 49

التغريب ورغبة التغييب 53

اللحية أقوى من جميع المؤهلات . ! ! 59

الحافظ المتقن الثبْت 65

صاحب الفضيلة «التائب»! 69

أكبر إشكالات المعلمين.. ! 73
لحظات الإبداع ونواميسها الخفيّة 79
يشتم من يعالجه ويكسوه ويُعَلّمه! 83
فلنسمح لهم ببناء معابدهم 87
نعم للتعايش.. لا للعصبيات! 91
لبس العباءات النسائية بدعة! 97
الفنون وسقف الحرية 101
تهويلُ أمر الموت! 105
الفساد أو الصلاح شأنٌ شخصي 113
جربوا أن تتغيروا 121
العيد الذي نريد 125
القصيميُّ شاعراً 131
الفرق بيننا وبينهم 135
إزعاج المتشددين في رمضان 141
وفيك انطوى العالم الأكبر 145
هل فهمتم الحياة.. ؟! 151
التنويرُ ملكاً 153
التغيُّرات الفكريَّة في المجتمع السعودي 165
آفة الذِّهن الجبنُ 169

نشوة الكاتب وفيضان قلمه 173
السرقة بوصفها احتجاجاً 179
تقنين الأحكام الشرعية 185
صديق الفكر أثمن الأصدقاء 187
وارفعي الخَفّاقَ أخضَرْ 191
كلُّ الناس سيدخلون الجنة! 195
حول الزواج والطلاق 203
القصاصُ في غرفةِ الغاز! 209
السعوديون ووأد العبقرية 213
توبوا من الليبرالية! 217
إيماضات 223

نحو الحرية في السعودية

«إيحاءات كونية وذاتية» واستفهامات
لم نجب عنها بعد

إنَّ عَجْزَ فئة من الكُتّاب عن أن يكونوا أحراراً في مجتمعاتهم دليلٌ على خوف مَنْ كبَّلهم بأغلاله منهم، وعجزه عن مقارعتهم، وإفلاسه التام وهشاشة عظام أفكاره التي يظن جهلاً أنها ستبقى في مأمن من القادرين على كسرها كسراً لا تجبر بعده أبداً.

لعمري إن القلب ليتقلّب على نار الحسرة على فئةٍ كثيرةٍ من أبناء مجتمعنا، والحيرة في أمرهم والاستغراب من تعارض مواقفهم واضطرابهم وخوفهم من الآخر.. رغم أنهم يزعمون دائماً ويقولون في كل حين: إننا واثقون بمنهجنا، وصحة قناعاتنا، وسلامة منظومتنا الفكرية المقدسة من الخطأ أو الخلل.. فلماذا يخافون صوت المخالف لهم إذن؟!

يجب أن يعلم أولئك، أن المثيرين للغبار في وجوههم ووجوه غيرهم من المستقرين الآمنين الفرحين بصفو أجواء الأوهام وسراب الأحلام ليسوا أعداء لهم، ولا كارهين لأشخاصهم، ولا حاقدين عليهم أو ناقمين منهم.

إنهم ليسوا إلا أكثر البشر معاناةً وحيرةً وتوتراً ناتجاً من اشتعال نار التفكير الحُرّ الذي يؤدي إلى رؤية الأمور كما هي، لا كما يصفها غيرهم. وقد تكون تلك المعاناة المقلقة، الدافعة والمحركة لهم، ظاهرةً واضحةً يعرفها الجميع عنهم، وقد تكون عكس ذلك؛ أي أنها خفيةٌ متواريةٌ لا يدركها إلا من عاشرهم جيداً، وتعمق في دهاليز عقولهم، وسبر أغوار الخفي المتواري في أرواحهم!

من مقدمة الكتاب

ISBN: 2-84409-697-2
9 782844 096975

بيرسان